روايات مصرية للجيب

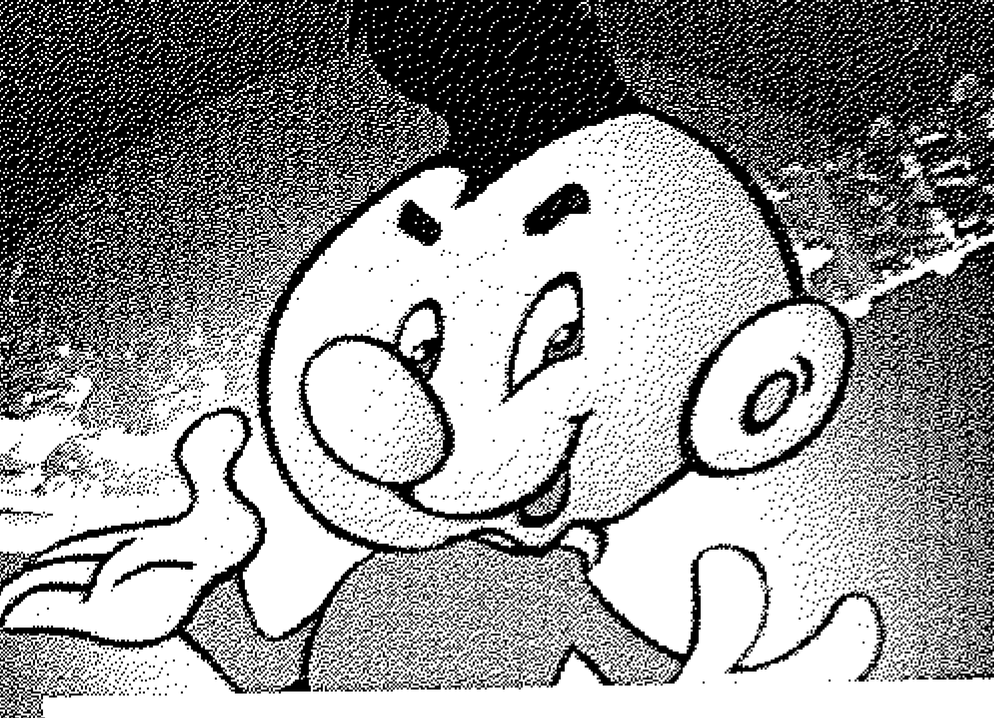
41

فانتازيا

ألعاب فارسية

د. أحمد خالد توفيق





إهـــــــداء 2005

أ./ علي حسن علي حسن

الإسكندرية

41

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

ألعاب فارسية

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

●

مصنَّف مصرى مائة فى المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

رسوم غلاف

الأستاذ / إسماعيل دياب

●

إشراف

الأستاذ / حمدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ـ القاهرة ـ ٦٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ـ 202/2596650 ج.م.ع
٤ شارع بدوى / محرم بك ـ الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

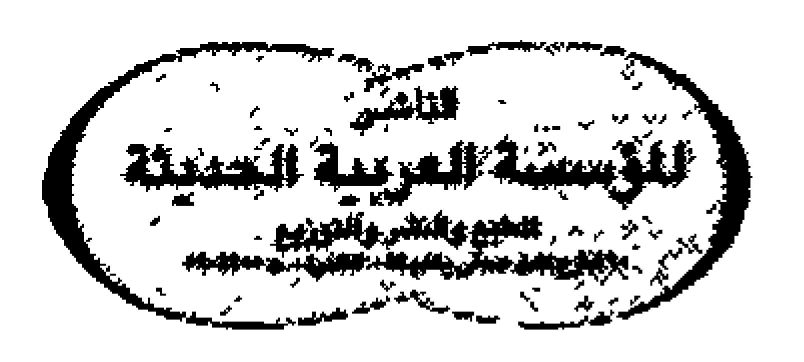
فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

41

ألعاب فارسية

بقلم
د. أحمد خالد توفيق



مقدمة

(عبيـر عبـد الرحمـن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت

تنتمى لـ (فانتازيا) اكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل ـ ونحن معها ـ العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطـة يدق ، والبخـار يتصـاعد مـن مدخنـة القطـار .. والمرشـد الملـول الـذى يرشـدها فـى أنحـاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على بـاب القطـار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

تقتضى الأمانة أن أوجِّه الشكر إلى الصديقة الكريمة (نيّرين) ـ أم (عمر) ـ والتى قرر موظفو السجل المدنى أنها (نرمين) بالقوة فكان لهم ما أرادوا ، والتى تحضّر رسالة ماجستير فى الأدب الفارسى ، وقد أعدت لى منذ عامين دراسة قصيرة جدًّا لكنها فعالة عن هذا الأدب استعانت فيها بدراستها مع أجزاء من كتاب (القصة فى الأدب الفارسى) للدكتور (أمين عبد المجيد بدوى) أستاذ الأدب الفارسى بجامعة عين شمس . بعد هذا استعملت أنا خليطًا من المصادر ومواقع الإنترنت (حوالى عشرين مصدرًا) لأستكمل الصورة .

* * *

١ـ ما بعد (نحن) ..

(نحن) ..

بشكل ما تتحول إلى (أنا وأنت) ..

ثم يحدث التفكك العبقرى فتصير (هو وهى) ..

توطئة لأن يتلاشى حرف (الواو) الرابط الأخير .. وسرعان ما يرحل (هو) بحثًا عن رزقه ، وترحل (هى) بحثًا عن عالمها الخاص ..

تحاول أن تتحسس الحياة من جديد من دون (شريف) ، وهذا عسير ؛ لأن (شريف) صار عادة سيئة لا تمكن الحياة من دونها !

كانت تجلس فى غرفتها الضيقة وتراقب (شذى) تلعب .. فتقول لها همسًا :

ـ « لقد تخلى بابا عنا معًا .. أنا وأنت .. لقد عاد إلى عالمه » .

وهى مطمئنة إلى أن الطفلة لا تسمع حرفًا من هذا الكلام ؛ فهى لا ترغب فى أن تنتقد (شريف) أمامها .. من الغريب أنها لم تذكر ضده أية عبارة سلبية برغم احتفالات القرابين

الوثنية التى أعدتها أمها .. فى كل مرة تهيئ المذبح وكل شىء من أجل مضغ سمعة (شريف) وكل ما يمت له ، تشعل الأم النيران وتتوهج عيناها بانتظار بدء الحفل ، لكن (عبير) تحبطها فى كل مرة .. هى لا تريد .. وهو ما تجده الأم غير أخلاقى إلى حد فاضح .. كل زوجة تحترم نفسها يتخلى عنها زوجها ، لابد من أن تقضى الوقت فى سبِّه وذمِّه ، أما هذا الترفع غير المفهوم فالأم تجده مزيجًا من الغباء والبلاهة والوقاحة ..

ما بعد (نحن) ..

إنها فى الآونة الأخيرة تعمل مع (صفوت) .. للأسف صارت الأمور معقدة جدًّا بالنسبة لها ، فلم تعد هناك بضعة أجهزة كمبيوتر ومجموعة من الصبية ، لقد تحول (نادى الأتارى) إلى (نت كافيه) ، وهناك عشرات الأجهزة وأكثر من فتى يضع السماعات على أذنيه ، وأكثر من فتى يرتبطون معًا فى لعبة واحدة مثل (الإنذار الأحمر) أو (نصف حياة) أو (ضربة مضادة) . إنهم يأتون معًا فى التاسعة صباحًا كأنهم ذاهبون إلى محاضرة ، تجدهم يقفون على باب المحل بانتظار بعضهم ، ثم ينتشرون على الأجهزة بالداخل ، سوف يبقون هنا ست ساعات كاملة ! ولكل منهم رصيد و .. و .. وأمور غاية فى التعقيد .

كان هنـاك (مـراد) الـذى يعرف كـل شـىء .. إنـه شـاب نحيل عصبى يفهـم كل تفاصيل هذه الألعاب ، وكان يريحـها من العذاب بأن يطلب منها مهمات محددة تناسب ذكاءهـا ، فيمـا عـدا هـذا كـان الاسـتغناء عنـه مسـتحيلاً ! أمـا عـن (صفوت) نفسه فلم يكن يظهـر إلا نـادرًا .. فـى المسـاء بالذات ..

كان قد افتتح مكتبًا آخر يمـارس فيه تلـك الأنشطة الغامضـة : خدمـات رجـال الأعمـال ، إصـلاح أجهزة المحمـوْل ، الفـاكس ، حجز تذاكـر السـفر بالطـائرة ، دورات فـى لغـة (سـى) .. لا تعرف الخيط الذى يربط كـل هـذه التفـاصيل ببعضهـا ، لكنهـا تلك المهن العجيبة التى جاء بها العصـر ، ويبـدو أنـه كـان يكسب جيدًا من تلك المهن مما جعل اهتمامه بألعاب الكمبيوتر أقل ..

ذات مرة قال لها وهو يلهث من البدانة :

ـ « عامة كل مهنة تتعلق بفتحات الجسد تنجح فى مصر : الفم ـ الأنـف ـ الأذن ـ الشرج .. لهذا تنجح مشـاريع الطعام ، ولهذا ينجح أطباء التوليد وجراحـو الأسنان والبواسير ؛ ولهـذا يثرى السباكون ، لهـذا تنجـح الأغـانى الشـبابية .. لهـذا يكـوم تجار المخدرات المـال ، لهذا تروج شركات المحمول .. »

بدا لها التعبير غريبًا .. فقالت متأملة :

ـ « والكتاب ؟! »

قال وهو يتواثب غيظًا :

ـ « لا .. العين ليست من فتحات الجسد .. كل ناشر يعرف هذه الحقيقة المريرة أو سيعرفها .. لكن الأذنين من فتحات الجسد المهمة ، لهذا تنجح تجارة المحمول وكل ما يتعلق به ! »

ثم فكَّر قليلاً وأضاف :

ـ « القياس الآخر هو استثمار كل ما يمت للبطالة .. مقاهى الإنترنت .. الكافتيريات .. أندية البلياردو .. مكاتب الاتصالات .. كلها مشاريع تنجح حتمًا » .

قالت له فى تهذيب :

ـ « أنت تعرف الكثير عن الكسب .. »

قال مغضبًا :

ـ « لكنى لا أحقق أبدًا ما يكفى لأصير من أعمدة المجتمع ، أنال ما يكفينى وأكثر لكنى كنت أطمح للثراء الفاحش .. إننى أعرف أكثر من أى أحمق آخر . لكن ينقصنى شىء ما . تلك اللمسة الأخيرة التى تحول الناس إلى (تايكونات Tycoons) ربما لأننى لست وغدًا بما يكفى » .

ثم سألها وهو يفتح الدرج ليحصى حصيلة اليوم :

ـ « هل من أخبار عن (شريف) ؟ »

هزّت كتفها فى ارتباك وقالت :

ـ « كنت أحسبك مصدر هذه الأخبار ؟ »

ـ « للأسف .. لم أعد أعرف شيئًا عنه ، أرجو أن يكون حيًّا » .

ثم قبض على رزمة من المال ودسَّها فى يدها ، نظرت له متسائلة فقال متضايقًا دون أن ينظر لها :

ـ « فلتكن سلفة .. أنت مسئولة عن طفلة .. و .. لنقل إن .. »

لكن الرسالة وصلتها . (صفوت) ذو القلب الكبير الذى يكره أن يبدو طيبًا .. لكنه كذلك .. طيلة هذه الأعوام عرفت أنه طيب القلب حقًا ، إنه حريص على راحتها وكلما احتاجت إليه وجدته ، لكنه يكره أن يبدو رقيقًا ويشعر أنه لم ينجح برغم عبقريته ؛ (لأنه ليس وغدًا بما يكفى) ..

هكذا أخذت المال .. كانت بحاجة له .. و(صفوت) هو الشخص الوحيد فى العالم الذى لا تسأل المرأة عن سبب عنايته الزائدة بها .. لا تسأل عن كرمه غير المبرر. السبب أنه طيب القلب .. لا أكثر ولا أقل ..

ثمة نوع آخر من الكرم يسبب لها القلق فعلاً .. هذا الفتى (مراد) يعنى بها أكثر من اللازم .. هى قد تفهم (صفوت) لكنها لن تفهم هذا الفتى أبدًا .. إن نظراته لزجة طويلة أكثر من اللازم ، وهو يبدى لطفًا لكنه لطف غير أصيل ..

صحيح أنه يتمتع بالكفاءة ، وصحيح أنها تشعر بالضياع لو لم يكن موجودًا ، لكن ليس لأنه ساحر أو فاتن لا سمح الله ، ولكن لأنه يعرف كيف يشغل لعبة (الإنذار الأحمر) وكيف يخرس هؤلاء الفتية المتعطشين للدم ..

قالت لنفسها إن (مراد) فى الغالب يحاول أن يلعب اللعبة الذكرية الشهيرة : الصيد فى الماء العكر .. إنه سمكة قرش وأسماك القرش تشم الدماء حيثما كانت .. دماء جراح قلبها .. لقد سالت هذه الدماء برغم حرصها الشديد ، وتلون الماء بلون أسود كئيب .. ومن مكان ما جاءت تلك السمكة لا تلوى على شىء ..

هناك فرصة ! هناك فرصة ! وليكونن أحمق بن أحمق لو تركها ..

لكنه أخطأ الفريسة .. هى لن تكونها ولن تقبل ..

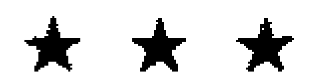
فقط لو يتركها وشأنها .. ليته يتركها وشأنها .

* * *

يمكننا الآن فهم الظـروف النفسـية التى دفعــت (عبير) إلى طلب بعض السلوى .. جهاز الأحلام الـذى هو من حقها وحدها .. لا أحد سـواها يعرف كيف يستعمله ولا أحد سواها يمكن أن يفيدَ منه ..

وحينمـا نـام الجميع ضغطـت علـى المفـاتيح طالبـة أن ينجدها المرشد ..

وقد كان ..



٢ ـ ألعـــاب فارسية ..

« (رستم) رجل حر وليس عبدًا إلا لله .. سيفى هو خاتمى .. وحصانى هو عرشى .. وخوذتى هى تاجى .. ومن دونى (كاى كاووس) لا شىء ! »

★ ★ ★

كانت الآن تتفقد (فانتازيا) بعين خبيرة ذواقة .. عندما تزور مكانًا ما أربعين مرة فإن تفاصيله تصير محفورة فى خلاياك ، وبرغم هذا كانت (فانتازيا) دائمة التبدل كالشلال ..

يمضى القطار المرح الصغير وسط معالم المملكة .. المرشد يجلس أمامها ناعسًا مغمض العينين ينتظر حتى تتخذ قرارها .. كانت حريصة على التدقيق .. عندما يقضى المرء مائة وأربعين صفحة فى عالم ما ، فعليه أن يدقق .. فى هذه الصفحات المحدودة قد تواجه الاحتراق بالقنبلة الذرية أو تعبر الألب مع جيوش (هانيبال) ، وقد تفر من (راسبوتين) أو تعبر الصحراء مع (لورانس) العرب ، أو تطير المقصلة عنقها .. يجب أن تدقق ..

راح يهوم برأسه ويقول كلامًا لا تتبينه لكنه مهم جدًا .. أما هى فكانت تفكر فى الإمكانيات المختلفة لهذا الذى تراه ..

ترى مدينة لها طابع عتيق .. ليس عربيًا بالضبط لكنه إسلامى .. طراز بناء فريد من نوعه .. منمنمات دقيقة من مدرسة (بهرزاد) تُظْهِرُ أبطالاً يحاربون وحوشًا أسطورية ، وحول رءوس الأبطال هالات نور تذكرك بأيقونات القديسين البيزنطية .. هى تعرف أن الحضارة الإسلامية أحدثت تقدمًا هائلاً فى الفن الزخرفى ، لكن فن التشخيص والبورتريه توقف لشبهات دينية .. إذن ما معنى أن ترى هذه الرسوم حولها ؟ الخط العربى نفسه يقطع الأنفاس هنا .. لقد جعل منه هؤلاء القوم فنًا عظيمًا شديد البراعة والأناقة والتعقيد ، يمكن أن نسميه (الطُّغراء) بضم الطاء برغم أن هذا المصطلح عثمانى وليس فارسيًا ..

فيما عدا هذا الجو كله جو شرقى كأنه ألف ليلة وليلة .. هناك جوار وأسواق يباع فيها البطيخ والشمام .. هناك سيوف وفرسان ملثمون على خيول مطهمة .. هناك نعناع ورائحة ماء الورد فى الجو .. هناك ..

ثم تذكرت .. لقد عاشت هذا الجو من قبل عندما واجهت (الفداوية) وفرق السفاحين .. عندما كان (عمر الخيام) لايتركها من دون رباعية كل عشر دقائق ..

إنها فى بلاد فارس .. هذه طهران لا شك فى هذا ..

وراحت تفكر .. ما الذى يمكن أن يوجد فى هذه البلاد مرة أخرى ؟ لقد جربتها من قبل فى مغامرة رهيبة وفى فترة من أحلك فترات التاريخ ، فماذا بقى ؟ الحقيقة أنها نسيت أنها تعرف تفاصيل أخرى عن هذا العالم ..

ـ « مرشد .. »

لم يرد وإنما رفع صوت شخيره أكثر ، فعاودت مناداته بصوت أعلى .. لما لم يرد وجَّهت له ركلة صغيرة فى ركبته بطرف حذائها فأجفل وهبَّ متيقظًا ..

قالت له وهى تشير خارج النافذة :

ـ « ما هذا بالضبط ؟ »

أخرج الدليل وراح يقلب الصفحات ، ثم تثاءب كفرس النهر وقال :

ـ « هذه .. أساطير فارسية طبعًا .. ماذا كنت تتوقعين ؟ »

ـ « وأى نوع منها ؟ »

ـ « هناك الكثير .. الفراعنة قضوا حياتهم مع (رع)

و(آمـون) .. والإغريـق قضــوا حيــاتهم مــع (زيــوس) و(فينــوس) .. وشــعوب الشــمال ضيَّعــت وقتهــا مــع (أوديــن) ، بينمــا راح البــابليون يتصــوَّرون الأخــت (عشتار) تفسد حياتهم .. لماذا يجـب أن يكـون الفـرس استثنـاء ؟ »

ثم نظر خارج النافذة وقال :

ـ « على كل حـال واضـح أن هــذه ملحمــة وليسـت أسطورة ؟ »

قالت فى غيظ وقد استفزها بروده :

ـ « تتحدث كأننى خبيرة أدب شعبى .. ما الفارق ؟ »

استرخى فى مقعـده ، ووضـع سـاقًا علـى ساق ، وراح يعبـث بالربـاط المطـاط لجوربـه علــى طريقــة (أشــده ـــ يلسعنى) الشهيرة ، وقال :

ـ « الأساطير هى صورة فطرية ساذجة لعقـائد القدمـاء .. أى أنهـا صيغة أخرى لديانات تحاول تفسير ما استغلق مـن غوامض الطبيعة . الملحمة Epic تختلف ؛ لأنها تتعامل بشكل شعرى مع أحداث تاريخية حقيقية ومع أبطال حقيقيين وإن أدخلت ما تشاء من خيال عليها .. هنـا نجد أن البطولة مهمة

جدًّا .. قال (أرسطو) إن الملحمة تشبه المأساة على المسرح .. كلاهما يتحدث عن المعاناة وصراع الأخلاق .. لكن المأساة تتخذ شكل حوار بينما الملحمة تتخذ شكل رواية .. يقول د . (محمد عنانى) إن صفات الملحمة الأولية هى(*) :

١ ـ الضخامة : ضخامة حجم الملحمة وضخامة الأحداث معًا .. لا بد من حروب ضروس وصراعات بين بلدان تمتد لعقود وأعداد غفيرة من (الكومبارس) .. لا يمكن كتابة ملحمة عن معاناة شاب مع حبوب الوجه لو أردت رأيى .

٢ ـ وحدة الحدث : عقدة واحدة مهما تفرعت الحبكات الفرعية .. هناك ٤٧٤٨٧٤ قصة لكنها تعود دومًا إلى القصة الأصلية : حصار (طروادة) أو رحلة (جلجاميش) .. إلخ ...

٣ ـ البطولة : إنهم وراء الواقع .. إنهم فوق الواقع .. إنهم أكبر من الواقع . لهذا ـ نكرر ـ لا يمكن كتابة ملحمة عن معاناة رجل يبحث عن مواصلة لإمبابة من دون أن تتهشم البطيخة التى يحملها ، أو فتاة تبحث عن طلاء أظفار يناسب لون بشرتها العكر .

(*) هذا الجزء مأخوذ من كتابه (الأدب وفنونه) .. مكتبة الأسرة ، سنة ١٩٩٧ ، وهو كتاب مهم جدًّا ككل كتب د. (محمد عنانى) فى الواقع .

٤ ـ الخرافة : ستظل الملاحم القديمـة مصدرًا لنـا لفهـم تلك الديانات الوثنية القديمة .

٥ ـ نقاط تقنية يفهمها المختصون .. مثـل البحـر السداسـى Dactylic hexameter .. البدء من النصف ثم العـودة للماضى ونقطة البداية .. الاستطراد .. إلـخ .. »

ثم استرخى فى مقعده وتنهد وقال :

ـ « سوف تجدين أن ملحمـة اليوم تحقق كـل هـذه الشـروط باستثناء الثانى .. وهذا باختصار شديد ! »

قالت فى غيظ :

ـ « تمنيت لو أبقيت فمى مغلقًا ! »

ـ « كان هذا إلى الحكمة أقرب .. والآن ما رأيك ؟ »

قالت وهى تشعر بالدوار :

ـ « سأجرب طبعًا .. لقد جربنـا الأسـلوب البـابلى فـى الملاحم فلم لا نجرب الأسلوب الفارسى ؟ »

قال منذرًا :

ـ « لكن أنذرك منذ البداية .. أنا لا أجد لـك دورًا واضحًـا لهذا سيكون دورك هامشيًّا جدًّا .. »

ـ « هذا ما أتمناه .. »

مد يده يجذب حبل القطار .. وهكذا بدأت المغامرة ..

★ ★ ★

زهجرت بشد • نج هشتاد بار

كه • فتم من اين نامه شاهوار

★ ★ ★

لا تذكر الكثير عن أبيها فى تلك الفترة ..

أحيانًا نعتقد أن آباءنا خرجوا من بطون أمهاتهم ـ لو كانوا قد فعلوا هذا ـ بذات الشكل الذى عرفناهم به ؛ ولهذا يصعب عليها أن تتخيل أباها بمظهر آخر غير هذا التعبير الحكيم المنهك المرير .. بغير هذه الأسمال البالية والقامة المنحنية .. بغير هذا الشعر الأشعث الأشيب ..

فقط هى تذكر أطيافًا عنه ..

لا بد أنه كان فى الخامسة والثلاثين من العمر .. كانت هى طفلة لا تكف عن اللعب فى الحقول والتى لا تعرف أنها تطل على مدينة (مشهد) ..

ثم كانت تعود للدار لتجده جالسًا على (الدشت) غارقًا فى التفكير .. إن الكتكوت بداخله ينقر البيضـة عازمًا علـى الخروج .. وما لم تكن تعرفه ، هو أنه سيظل على هذه الحـال لمدة خمسة وثلاثين عامًا أخرى ..

ثم جاء اليوم الذى أحضر فيه القرطاس والريشة .. بلـل تلك الأخيرة بالحبر ثـم تربـع علـى الأرض ، وبـدأ يكتـب .. يكتب ويكتب .. بلا توقـف .. هكـذا أيضًـا سـوف تذكـره مـا بقى من حياتها ..

كان (الدهقان) ـ وهم الفلاحون الفقراء الذين يعيشـون فى الجوار ـ يقولون لها إن أباهـا (أبـو القاسـم منصـور) شاعر عبقرى موهوب وإن عليها أن تفخر بـه ..

حينما كان يغادر الدار كان يتجه إلى بيوت هؤلاء الفلاحيـن .. هناك كانوا يقدمون لـه البطيخ الإيرانـى الأصفر والشـاى .. وكـان شـيوخهم يشـعلون الغلاييـن ، ثـم يحكـون مـن تحـت شـواربهم الفارسـية الكثـة قصصًـا ممتعـة كـانت تهيـم بهـا حبًا .. قصصًا عـن تنـانين وعـن رجـل مرعـب لـه ثعبانـان يخرجـان مـن كتفيـه .. عن رجل يدعـى (رسـتم) وعـن حسناء تدعى (تهمينة) .. وعن .. وعن ..

كانت (عبير) ـ التى عرفت أن اسمها (ثريا) ـ تصغى لهذه القصص مفتوحة العينين ذاهلة .. وكان أبوها ينظر لها من حين لآخر وقد شاعت بسمة على وجهه الوسيم كأنما يبغى أن يرى تأثير هذه الحكايات عليها على الطبيعة ..

ثم كان يرجع إلى الدار ليخط كل ما سمعه فى مسودات صغيرة ، وكان يستعمل هذه المسودات فى ذلك العمل العملاق الذى يكتبه ..

ذات يوم دنت منه .. وضعت رأسها الصغير على كتفه وراحت تتملى خطه الجميل على القرطاس .. أراح جلسته قليلاً لتتمكن من الجلوس على حجره ، وإن همس فى أذنها :

ـ « احترسى وإلا سكبت الدواة على الورق ! »

نظرت له فى حيرة ، ثم همست :

ـ ماذا تكتبه يا أبى ؟ »

قال فى شىء من الفخر :

ـ « أكتب كتاب الملوك .. (كتاب الملوك) باللغة الفارسية معناه (الشاهنامه) ! »

★ ★ ★

٣ ـ عن الشاهنامه ..

• نين • فت رستم بآواز سخت
كه اى شاه شادان دل ونيكبخت
بدين • ونه تيز وتندى مكوش
بداننده ب • شاى يكباره • وش

★ ★ ★

لا يجب أن تكون فارسيًا لتعرف قيمة هذا العمل الرهيب الضخم (الشاهنامه Shahnama) ، الذى ينسب له أنه العامل الوحيد الذى أدى لحماية اللغة الفارسية من الانقراض ..

ليست اللغة فقط ، بل الثقافة الفارسية .. إن (الشاهنامه) مرجع شامل لتاريخ الفرس وعقائدهم وأبطالهم ، عمل لا يمكن أن تصدق أن شخصًا واحدًا كتبه .. والحقيقة أنه لم يكتبه بالضبط ، ولكنه جمع أساطير الفرس وحكايات الفلاحين الدهقان ، ثم أدخلها إلى ذلك الخلاط العملاق الموجود فى عقل كل أديب كبير ، وصنع منها ذلك المزيج المتجانس الساحر الذى خلب لب الكثيرين ..

يجب أن نذكر أن أول ترجمة للشاهنامه باللغة العربية قام بها الفقيه (قوام الدين بن على البدارى) فى دمشق . أما باللغة التركية ، فقد قام الشاعر التركى (على أفندى) بترجمة الشاهنامه شعرًا منظومًا عام٩١٦ هجرية ، وقد شهد عصر السلطان (سليمان القانونى) اهتمامًا بنظم التاريخ شعرًا ، وقد ابتكر منصبًا فى البلاط يدعى (شاهنامجى) أى (ناظم تاريخ الملوك على غرار الشاهنامه) .

وهناك ترجمات لكل الشاهنامه أو أجزاء منها ، باللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والأسبانية والدنماركية واللاتينية والبولندية والمجرية والسويدية والأرمنية وغيرها .. أشهر هذه الترجمات ترجمة (تشاك) باللغة الالمانية ، وترجمة (جول مول) باللغة الفرنسية وترجمة (بيتزى) باللغة الإيطالية ..

هل يضايقك هذا الاستطراد ، وينغص استمتاعك ويحيل حياتك جحيمًا « نعم » ، يا أخى كنت أتوقع أن تجيب بالنفى على سبيل المجاملة .. ليكن ، فقط تحملنى بضعة أسطر وبعدها كما يقول (حافظ إبراهيم) :

أبشر فإنى ذاهب .. متوجه فى داهية ..

مـاذا كنـت أقـول ؟ آه .. يجـب التحفـظ نوعًا مـع هــذا العمل ؛ لأنـه صدر عـن شــعور فارسى عميق بأن الحضـارة العربية توشك على التهامهم ؛ لهذا تنتهى الشاهنامه بدخول العرب ومقتل ملك الفرس ، ويرى كثير مـن النقـاد أن الشـاهنامـه تحـوى الكثير مـن (الغـل) الفارسـى الدفيـن تجـاه تلـك الحضارة ، لقد فتح المسلمون بلاد الفرس فى عهد الخليفـة (عمـر بـن الخطـاب) رضى الله عنـه ، وقتل آخر حكامهم (يزدجرد Yezdgird) الثالث .. ثم بدأ الفـرس يدخلـون الدين الجديد ويندمجون فى الحضارة الجديدة ..

لكـن حكـم الأمويين لـم يـأت لهـم بخـير .. لقـد عوملـوا كمواطنين من الدرجة الرابعة ، وتسـبب هـذا فـى نـوع مـن الحقد الأصيل الكامن فى نفوسهم تجاه بنى أمية ، وأحيانًا ضـد العرب جميعًا .. وهكـذا كـان مـن الطبيعـى جدًّا أن يؤيـدوا مجىء العباسيين للحكم .. فى (خراسان) كان (أبو مسـلم الخراسانى) ـ وهو شـخصية جديرة بكتـاب كامل ـ هو قـائد التآمر ضد الأمويين .. وسرعان مـا انهـار حكـم بنـى أميـة ، وفر (مروان) الثانى إلـى مصـر حيـث قتـل .. لقـد تلاشـى الأمويـون ، فلـم تعـد لهـم إلا مملكتهـم فـى إسـبانيا .. هـذه تفاصـيل يعرفهـا أى تلميذ فى المدرسـة الإعداديـة يجيـد عملـه ..

نحن الآن فى القرن العاشر الميلادى وقد شرع الفرس فى إعادة إحياء لغتهم الموشكة على الانقراض .. انقرضت الفارسية القديمة ، لكنهم أحيوا ما يعرف باللغة البهلوية ..

من الغريب أن هذه اللغة بعثت أولاً فى (بلخ) فى (أفغانستان) .. ثم بدأت تبعث على استحياء فى بلاط الأمراء الذين حاولوا التمرد على الحكم العباسى بدوره .. كان الأمراء يمارسون تقاليد رعاية الأدب كما تعلموها من العرب ، وصار الشعراء يقصدونهم بقصائد المدح .. فكان الشاعر الذى يستحسن الأمير قصيدته يُمنح ملء فمه ذهبًا أو يُعطى حصان سبق .

وكما يحدث فى كل مكان عندما ترعى السلطة الفنون ، وكما عرفنا آل ميديتشى Medici فى إيطاليا وبلاط (هارون الرشيد) ، ازدهر الأدب الفارسى بقوة فى تلك الفترة ، ولسوف تظهر أسماء لا تقل عن (حافظ شيراز) و(مولانا رومى) و(عمر الخيام) و(الشيخ سعدى) .. إلخ ..

هنا يخرج (أبو منصور الدقيقى) ..

هنا يدخل (أبو القاسم منصور) ..

الرجل الطموح الذكى ، الشاعر الموهوب الذى قرر أن يخلد التاريخ الفارسى والأدب الفارسى فى عمل واحد .. يجب أن نقول : إنه ليس من بدأ (الشاهنامه) . ففى عصر الدولة السامانية ـ القرن الرابع الهجرى ـ أمر الأمير(نوح بن منصور) الشاعر (أبو منصور الدقيقى) بكتابة تاريخ فارس شعرًا ، وقد كتب منها ألف بيت وكانت البداية تتحدث عن (زرادشت) وصعود ديانته والملك (كشتاسب) ، لكن (الدقيقى) قتل هنا على يد خادمه التركى ..

هكذا وجد (أبو القاسم) نفسه أمام عمل أسطورى لم يكتمل بعد ..

وقرر أن هناك رجلاً واحدًا يستطيع استكماله ..

رجلاً يستحق بجدارة بأن يوصف بأنه (هوميروس) الفرس (وهذا اللقب من اختراعى على قدر علمى) ..

كان هو ذلك الرجل ..

* * *

فى البدء وجدت (عبير) أن اسمها (رودابة Rudabah) .. اسم غريب طبعًا لكنه محبب للأذن الفارسية .. إن أباها هو (مهراب) ملك (كابول) شخصيًا .. أمها سيدة أريبة اسمها (سيندخت) ..

هناك شاب مخلص مكافح يتقدم لها .. هذا الفتى يدعى (زال) .. إنها موافقة .. خاصة أن الفتى يبدو كريم المحتد .. لكن أباها لا يوافق .. الفتى من نسل ملوك لكنه ليس ملكًا .. كما أنه ربيب عنقاء .. تخيل أن يتقدم لابنتك عريس ربته عنقاء !

أصر الأب على موقفه .. فقابلت (عبير) ذلك بالدموع والهستيريا ، وخطر لها أن مشاكل الفرس فى الملاحم لا تختلف عن مشاكل باب (أريد حلاً) فى أية مجلة .. هذه الزيجة لن تتم .. لكن الفتاة متعلقة به ..

هنا تتدخل الأم التى قلنا إنها أريبة .. أقنعت الأب بأن الفتى يبشر بخير ، وهكذا تمت الزيجة التى سوف يكون ثمرتها بطل أبطال الفرس ..

كانت الولادة عسرة جدًّا .. يبدو أن الجنين كان ضخمًا أكثر من اللازم ، وقد أدركت القهرمانة أن (رودابة) موشكة على الموت .. هكذا خرجت تصرخ وتلطم الخدين باعتبار ما سيكون ..

جاء (زال) ليرى ما حلّ بامرأته .. بالفعل الوضع خطير .. إن هالتين سوداوين تحيطان بعينيها ، وقد غطت القشور شفتيها .. (عبير) تحاول أن تتكلم فلا يخرج الكلام من شفتيها ..

هكذا قرر أن يلجأ إلى الحل الذى يبقيه للنهاية فى كل مرة .. أخرج من بين ثيابه ريشة ، وقربها من لهب الشمعة ..

قالت له (عبير) واهنة :

ـ « ماذا يحدث ؟ هل جننت ؟ »

وقبل أن تفهم أطلقت شهقة رعب ؛ لأن السماء أظلمت وتوارت الشمس ، ومن أعلى انحدرت العنقاء المخيفة بريشها الأحمر وصرخاتها التى تمزق أعصابك قبل أذنيك .. هنا فقدت (عبير) وعيها ولا تثريب عليها ..

العنقاء تمسح رأس (زال) بجناحها .. إنها هى التى ربته مع أفراخها ثم ردته لأبيه عندما اشتد عوده .. والريشة التى أحرقها هى طريقة لاستدعائها .. وهنا نكتشف ظاهرة بيولوجية غريبة فى الشاهنامه : ظاهرة العنقاء التى تجيد التوليد .. إنها تشمر عن ذراعيها ، وتبدأ التوليد كما لم يفعل

أفضل طبيب أمراض نساء فى التاريخ ، وفى النهاية تصاعدت صيحات الوليد فجفت العنقاء عرقها ، وانطلقت محلقة ..

هكذا ربت العنقاء (زال) وأنقذت حياة ابنه ..

هل تعرف من هو ابنه ؟

★ ★ ★

(رستم) البطل الإيرانى العظيم ..

من مثل (رستم) ؟ لا أحد .. إنه الخامة الأصلية للبطولة قدت من مقلع التاريخ ، ومن هذه الخامة يمكنك أن تشكل أبطالاً أقل شأناً من (رستم) ..

(رستم) ابن (زال) سليل ملوك الفرس ابن (سام) ربيب العنقاء و(رودابة) ابنة ملك (كابول) .. يجب أن نذكر هنا أن (زال) أبا (رستم) هو من مجموعة من أبناء الملوك تعج بهم الشاهنامه لم يستطيعوا أن يجلسوا على العروش ، ومن هؤلاء (طوس بن نوذر) و(إصفنديار بن كرشاسب) ..

إن (رستم) اليوم فى الثامنة من عمره .. أى أنه فى السنة الثالثة أو الرابعة الابتدائية لو كان شخصًا عاديًّا ، لكن سن الثامنة بالنسبة لأبطال الملاحم هى سن كافية لغزو العالم ..

لقد صحا من نومه جوار أمه ليسمع ضجيجًا وصراخًا .. الأرض تهتز .. صوت غريب هو مزيج من نهيق الحمار وخوار الثور .. ماذا يحدث هنا ؟

نهض من الفراش واتجه إلى الباب ، فقال له أحد الحرس :

ـ « فيل الملك الأبيض قد فر .. »

بدا الحماس على (رستم) وأراد الخروج ..

ـ « مستحيل يا سمو الأمير ! إن حياتكم مهمة جدًّا ! »

ـ « لكنى أرغب فى .. »

ـ « مستحيل ! »

وأغلقوا الباب بإحكام كى لا يخرج ..

هكذا وقف وحده يصغى لأصوات مغرية محببة .. أصوات لا يمكن أن توصف لكنها السحر ذاته .. تهشيم عظام ..

صراخ .. بطون تبقر .. هناك من يحمله الفيل بخرطومه ليلقى به على بعد مائة متر ..

الخلاصة أنه لم يستطع مقاومة هذا السيرك ..

قالت أمه (عبير) وهى ترى تلك النظرة فى عينيه :

ـ « لا تفعل يا ولدى ! أرجوك ألا تفعل ! »

لكن فات الأوان .. أبطال الملاحم لا يصغون للنصائح ..

هشم الباب بقبضته واندفع إلى الخارج ..

بالفعل كان المشهد أقرب إلى الكابوس .. الفيل الآسيوى العملاق يندفع وسط صفوف الحراس .. هؤلاء البلهاء يصوبون رماحهم لكنه يقتلع الرجل برمحه ويطوح به إلى مسافة مائة متر ، ثم يستدير لينتزع آخر ولا بأس من أن يدوس على من يتعثرون ..

اندفع (رستم) الصغير وسط هذا الزحام حاملاً صولجان أبيه .. تسلّق شجرة حتى صار فوق الفيل ، وثب فوق عنقه ثم هوى بالصولجان بأعنف ما استطاع ، من ثم تهاوى الفيل صريعًا ..

فما إن تكوّم العملاق الأبيض على الأرض حتى وثب (رستم) من فوقه وسط ذهول الواقفين !

عاد إلى البيت فدخل فراشه أمام عينى أمه المذهولتين ، ونام حتى الصباح غارقًا فى أحلام سعيدة ..

تقول إن هذا صعب ؟ أنت لست بطل ملاحم فلا تستطيع التعليق على حدث بهذه الأهمية ..

فقط أردت أن أعطيك فكرة عن نشأة هذا الرجل ..

★ ★ ★

نقفز إلى الأمام بضع سنوات لنسمع هذا الخبر الرائع .. لقد سمعه (بشنج) ملك (توران) عدو الإيرانيين ، ونقله إلى ابنه (أفراسياب) ..

لقد مات (مانوشهر) ملك الإيرانيين وترك كل شىء لابنه (نودير) .. كان هذا أجمل خبر سمعه فى حياته ؛ لأن (نودير) ليس أكثر من صبى غرير رقيع مغرور ..

أما ابنه (أفراسياب) فذئب حقيقى .. وغد يسيل الدم من أنيابه ، ولسوف يكبر ليصير ألد أعداء إيران و ألد أعداء (رستم) .. تذكر هذا الاسم ؛ لأننا سنقابله مرارًا بعدد شعر رأسك ..

وقال (أفراسياب) وهو يبتلع لعابه :

ـ « صبرًا ! سليرب ! سوف ألتهم (نودير) هذا كفاتح شهية ! »

إن إيران قد صارت ثمرة ناضجة حان قطافها ..

هكذا نادى رجاله ، وأعلن لهم أن وقت القتال قد حان .. سنزحف على إيران يا رجال !

وهكذا التقى الجمعان : رجال (توران) ضد رجال (إيران) ..

سال الدم كأنه الأنهار ، وتطايرت الرءوس كأنها أوراق الشجر فى الخريف . أما الرأس الأهم الذى طار فهو رأس (نودير) نفسه ..

تقول الملحمة إن هذا الفتى مستهتر ، وأرى إنه مظلوم .. هو لم يجد وقتًا كافيًا للاستهتار ما دام مات فى اللحظات الأولى للقصة ..

وسرعان ما راحت الأنباء تتوالى عبر إيران ..

لقد هزم (نودير) .. لقد صارت إيران ثمرة ناضجة ..

سمع (زال) هذه الأنباء السيئة فنادى ابنه (رستم) .. وقال له :

ـ « أى بنى .. إن شفتيك ما زالتا تحملان رائحة اللبن .. »

نظر (رستم) فى ذهول إلـى أبيـه .. مـا هذه البدايـة المحبطة التـى هـى أقرب إلـى الإهانـة ؟ لكـن الأب العظيم استطرد قائلاً :

ـ « مـن الواجب أن يمـرح قلبـك ، لكننـا فـى خطـر ، وإيران كلها بحاجة إليك ! »

طبعًا كان هذا أفضل مما يتوقعه الصبى .. إنها دعوة للقتال .. لا مزيد من الذهاب للمدرسة وتعلم اللغة الفارسية وتعليمات الأم ، وإنما هو الطعان والكر والفر .. لقد انتهت المدرسـة ، أو كما يقول الغربيون : School is out ..

قال لأبيه وهو يجاهد كى لا يقفز فرحًا :

ـ « تعرف يا أبى إننى أشتهى الحـرب ، ولا أصبـو لأيـة متعة طفولية .. هبنى القوة من (سام) أبيك .. »

الآن هناك مشكلة واحدة هى الحصان الذى سيركبه الفتى ..

هذا الجزء مهم ؛ لأن هذا الحصان شهير .. ربما يفوق شـهرة صاحبه ، ولسوف يظل مخلصًا له حتـى يغيب معـه فـى القبر .. إن (رستم) لا يبحث الآن عن حصان لكنه يصنع التاريخ ..

كان هناك صف من الخيول ، وقد مشى بينها (رستم) يتفحصها بنظرة خبير الفروسية .. كان يضغط على ظهر كل حصان ليرى إن كان سيتحمل ثقله .. وهو أسلوب شبيه بأسلوب حدادى السيارات عندما يتفحصون (المساعدين) .. فى النهاية مط شفته السفلى مشمئزًا .. كل هذه خيول رقيعة لا تتحمله !

على أن الحل جاءه حينما كان يمشى فى سهول (كابول) ، فرأى حصانًا لا يمكن وصفه بكلمات .. لونه ـ يقول الفردوسى ـ كلون أوراق الورد المبعثرة على أرض من الزعفران .. لا تسألنى إذن عن لونه فأنا لا أعرف !

صدره صدر أسد وقوته قوة فيل .. الخلاصة إنه هو أنت تعرف الحصان الذى تبحث عنه حينما تجده ..

أمسك بأنشوطة واقترب قليلاً من الحصان الثائر ، ثم ألقى بالحبل عليه ..

وثب الحصان فى الهواء ، ثم وقف على قائمتين خلفيتين ، وراح يرغى ويفعل كل ما يفعله أى حصان يحترم نفسه ، لكن (رستم) ظل ثابتًا واستمر الصراع ساعات حتى أدرك الحصان من هو السيد ..

ـ « أرجوك أيها الفارس النبيل لا تسلبنى حصانى ! »

ونظر (رستم) إلى الوراء فرأى فلاحًا بائس الحال ينظر له متوسلاً ..

قال للفلاح وهو يربِّت على عنق الحصان :

ـ « لكن لا علامات عليه تدل على أن له صاحبًا .. »

قال الفلاح مجففًا عرقه :

ـ « اسمه (راخاش) .. (راخاش) معناها البرق كما تعلم .. إنه لا يسمح لأحد بركوبه برغم أنه مستعد لوضع السرج منذ ثلاثة أعوام .. »

قال (رستم) وعيناه تلمعان ، وهو يتفحص الحصان :

ـ « هبنى إياه !! كم ثمن هذا التنين ؟ »

قال الفلاح :

ـ « ثمنه غالٍ .. إنه أرض إيران .. لكن لو كنت أنت (رستم) ، فلتأخذه بلا ثمن سوى أن تنقذ إيران ! »

وركب (رستم) الحصان الجامح فبدا كأسطورة .. بدا أكبر من الحياة ذاتها ..

وأطلق صيحة ارتجت لها السهول ، ثم انطلق كى ينصر إيران ..

كانت المشكلة الآن هى العثور على حاكم جديد لإيران ..

لم يكن (رستم) راغبًا فى قيود الحكم .. إنه كما قال مرارًا يعتبر (راخاش) عرشه وخوذته تاجه .. لايريد شيئًا آخر ..

هكذا انطلق إلى جبل (ألبورز) .. وصل إلى بيت تحيط به حديقة غنَّاء .. هناك نافورة وجدول ماء رقراق .. أكثر من طاووس على العادة الفارسية ، وحسناوات يلتففن حول شاب وسيم يجلس فى الحديقة يلتهم الفاكهة .. بدا هذا المنظر مترفًا غريبًا بالنسبة لـ (رستم) الخشن المغبَّر ..

ـ « مساء الخير .. أنا أبحث عن (كاى جوباد) .. »

ـ « هل تريده فى شىء ما ؟ »

كان (رستم) يغتاظ كثيرًا لهذه الطريقة .. تسأل الشخص عن شىء ما فيستجوبك ، ثم فى النهاية يعلن أنه لا يعرف .. لكنه فى النهاية وجد نفسه مضطرًا .. فقال للفتى :

ـ « إنه مرشح ليكون شاه إيران لو كان الأمر يهمك فـى شىء . »

هنا هتف الفتى فى مرح :

ـ « أنـا (كـاى جوبـاد) !! الآن فهمـت الحلـم الـذى رأيتـه أمس .. كان هنـاك صقران طارا من إيران ليضعا تاجًا ذهبيًّا على رأسى !! »

هكذا شعر (رستم) بالرضا ؛ لأنـه أنجز مهمته ..

عاد بالحاكم الشاب إلى خيام أبيه (زال) وتمـت حفـلات التتويج .. وهكذا صار للإيرانيين شخص يقفـون خلفـه فـى حربهم للأتراك ..

استمر حكم (كــاى جوبــاد) أعوامًـا رائعـة . ولمـا مـات خلفـه ابنـه (كـاى كـاووس) .. مـات الشـاه .. عـاش الشــاه .. (كاى كاووس) أخرق وأحمق مثل (نودير) .. حاول الهجوم على (مازندان) ، ففشل وسقط فى الأسر والأهـم أن بصـره كـف .. إنــه الآن أسير فـى قبضـة (التــوران) يحرسه التنين الوغد (ديف) الأبيض ..

هكذا صارت مشكلة (رستم) أن ينقذ (كـاى كـاووس) شاه إيران ، ويعيد لـه بصره ..

وهكذا تبدأ رحلة بحث أسطورية من عشرات الرحلات التى تعج بها الشاهنامه ..

★ ★ ★

انتهى (رستم) من عشائه فى الخلاء ، ومعنى أنه انتهى من عشائه حسب تقاليد الشاهنامه الصارمة أنه أكل بغلاً ، ثم هشَّم عظامه من أجل النخاع ..

أخيرًا نام (رستم) .. هؤلاء الأبطال لا ينامون إلا على ظهورهم مع مباعدة الأطراف ، وهى النومة التى يقول علماء النفس ، إنها توحى بالسيطرة والتملك والثقة بالنفس ..

صدره يعلو ويهبط فى شخير ترتج له أشجار الغابة .. وهنا نعرف شيئًا آخر عن هؤلاء الأبطال : إنهم ينامون كالأصنام ..

ثمة زائر قادم من وسط الأحراش وقد شم رائحة الشواء . يدنو الزائر أكثر فتسمع زئيره وترى عينيه الناريتين .. إنه أسد .. أسد فارسى محترم جدًّا ..

و(رستم) نائم فلا يمكن ان يوقظه شىء ..

★ ★ ★

٤ـ أنت الفردوسى ..

نحن الآن فى (غزنة) ..

العام الهجرى أربعمائة حسب قول الشاعر نفسه : (بنج هشتاد بار) أى إنه نظم الشاهنامه فى العام الهجرى (٥٠ X ٨) ..

يجتاز (أبو القاسم) المدخل بين الحُرّاس المُدَجَّجِينَ بالسلاح ..

الحقيقة أنه لم يعتد كثيرا المثول أمام الأمراء والملوك برغم أن هذه كانت عادة شعراء العصر .. لقد كان معتزًّا بنفسه لكنه شعر بأن عمل عمره يجب أن يُكافأ بسخاء ..

سألته ابنته (عبير) همسًا ، وهى تهرع لتلحق به :

ـ « لماذا غيَّرت مبادئك ؟ ظننتك فى حالة اكتفاء ذاتى .. »

قال همسًا وهو يجد السير بين السيوف والرماح :

ـ « لئن لم تغتنى هذه القصيدة فلا نفع فى كل ما كتبت .. هناك لحظة فى حياة كل إنسان يرغب فيها فى معرفة ما إذا كان واهمًا أم لا .. وقد جاءت لحظتى .. »

على الباب الأخير استوقفه حارس تركى مخيف .. يبدو أن الحُرّاس يزدادون ضخامة وبشاعة خلقة كلما توغّلت أكثر .. فقال له فى كبرياء :

ـ « أريد مقابلة السلطان (محمود) .. لدىّ قصيدة له .. »

نظر له الحارس مفكرًا ثم أشار إلى (عبير) :

ـ « وهذه ؟ »

ـ « ابنتى .. »

من ثَمّ دخل الحارس الباب السميك .. وسمع (أبو القاسم) جلبة من الداخل .. واضح أن السلطان التركى (محمود الغزنوى) يتمتع بطباع سلطان تركى فعلاً . إنه يرفض ويتشاجر .. ولابد أنه يقول الكثير من (خرسيس نرسيس أوغلى كلاب .. إلخ) ..

كلا الرجلين يغلى .. السلطان بالداخل يغلى لأنه لا يفعل شيئًا آخر .. إنه يصحو من نومه ليغلى حتى الليل ، أما الشاعر ، فيغلى لأنه راغب فى الانصراف .. لو لم يكن قد توغّل كل هذه المسافة لانصرف بلا ندم .. و(عبير) ترقب أباها مشفقةً .. إنها تعرف طباعه ، وتعرف أن هذه محنته الخاصة ..

فى النهاية انفتح الباب وقال الحارس :

ـ « ادخل .. لكن بسرعة !! »

ما أرهب أن تدخل إلى بلاط السلطان (محمود الغزنوى) التركى الذى قهر آسيا الوسطى ! كان جالسًا على عرش عالٍ يدخن النارجيلة ، وقد أحاط به رجاله .. غزاة أتراك فعلاً .. الشوارب الكثة والحواجب الغليظة والنظرات النارية الملتهبة ..

ـ « تعال يا شاعر ! »

هكذا مشى الشاعر نحو السلطان .. وخلفه (عبير) تهرول محاذرة أن تتعثر فى البساط السميك الذى يذكرها بالرمال المتحركة .. من أين يأتون بكل هذا المال ؟ يبدو أن مهنة الغزو مربحة فعلاً ..

حنى الشاعر رأسه فى عصبية ، ثم مدَّ يده إلى ثيابه ، فأخرج لفافة .. فكَّها وبدأ يقرأ .. بصوت متحشرج فى البداية ثم صوت ثابت رصين ، ثم بدأ الانفعال يجعل صوته يتهدج ثانية لكنه يتهدج فى المكان والوقت الصحيحين :

ـ ا•ر جن• خواهى وخون ريختن

بدين سان تكا•وى وآويختن

ب•و تا سوار آورم زابلى

كه باشند با جوشن كابلى »

ارتفع حاجبا السلطان التركيان .. على حين واصل الشاعر الإنشاد ، وقد نسى كل شىء عن هيبة المجلس .. نسى الجائزة .. نسى كل شىء إلا سحر الكلمات .. فلو قيل له إنه لا جائزة .. لو قيل له إن رأسه سيُقطع لو استمر .. لاستمر ..

ـ « •ه بايد مرا جن• زابلستان

همان جن• ايران وكابلستان

مبادا •نين هر•ز آيين من

سزا نيست اين كار در دين من

كه ايرانيان را به كشتن دهيم

خود اندر جهان تاج بر سرنهيم »

هنا صرخ السلطان بأعلى صوته :

ـ « راااائع ! جوزال !! جوزال أفنظم جوزال ! »

وراح يخنفر خنفرة شديدة من أنفه ..

معه حق فالكلمات مؤثرة كما ترى .. ماذا ؟ لا تفهم ؟ كنت أحسبك تجيد الفارسية .. أنا لا أجيدها لكن حسبتنى الأحمق الوحيد فى هذا العالم ..

موضـوع الأبيـات هـو حـوار بيـن (رسـتم) العظيـم و(أصفنديـار) البطـل العظيـم الآخـر .. وهـو جـزء مـن قصة (هفتخوان إسفنديار) الشهيرة ..

(رستم) يقول : يا أخـا الملـك وذا السـعد وذا القلـب المنير ..لا تجادل ، ثم لا تغضب وكن مستمعا لعليم ناصح جمع علمًا كثيرًا ..

فيرد عليه أصفنديار قائلاً : لا أريد الحرب فى زابولستان .. لا أريد حرب إيران ولا كابول .. إن أخلاقى لا تقبل ما تصبو إليه ، ليس من دينى ما قلت وما تمشى عليه ..

هنـا بلـغ السلطان حالـة مـن النشـوة جعلتـه يشق ثوبـه بالطول ، وهو سلوك معتاد فى ألف ليلة وليلة .. ثم صـاح بصوت ارتجت له القاعة :

ـ « عفارم ! ما اسمك أيها الشاعر الفحل ؟ »

توقـف (أبو القاسم) متضايقًا ، لأنه كان يشتهى إنشـاد الشعر للأبد .. وقال :

ـ « أبو القاسم منصور يا مولاى .. »

صاح السلطان بجنون :

ـ « بل أنت الفردوسى ! أشعارك جعلتنى أشعر بأننى فى الفردوس ؛ لذا أنتَّ الفردوسى ! »

ثم صاح بصوت خلع قلوب الواقفين :

ـ « جنيهان ذهبيان عن كل بيت !! »

ارتعد الجميع ، وراح الكل يحسب فى ذهنه المبلغ الذى يمكن لشاعر النحس هذا أن يحصل عليه .. إن الشاهنامه سوف تصل إلى ٤٤ ألف بيت وبهذا سيكون حجمها مثل الإلياذة سبع مرات .. وقالت (عبير) لنفسها : لقد صرنا أثرياء بحق ..

لكن الفردوسى ـ كما صار يدعى بعد دقيقتين ـ كان من طراز فريد من البشر .. كان فناناً لا يرضى إلا بالكمال ..

لهذا قال فى تهذيب :

ـ « فليسمح لى مولاى .. لن أتقاضى مليمًا عن هذه القصيدة إلا بعد الانتهاء منها ! »

نظر له الجميع فى ذهول ..

إما أنه فنان حقيقى ، وإما أنه جشع إلى حد لا يصدق لا يرغب فى تجزئة المال .. المهم أن هذا موقف غير معتاد ..

وهمست (عبير) فى أذنه :

ـ « أبى .. أخشى أن تندم على هذا ! »

ولم تدر كم هى محقة ..

★ ★ ★

جهاندار ا•ر نيستى تن•دست

مرا بر سر •اه بودى نشست

كه سفله خداوند •يتى مباد

جوانمرد را تن•دستى مباد

★ ★ ★

الأسد يواصل زحفه نحو القتل السهل ..

هنا يهب حصان (رستم) ليبرهن بحق عن أنـه حصـان (رستم) .. وثب على الأسد البائس .. الأسد الذى حسب الخيول سواء والرجال النائمين سواء .. هكذا وجَّه الحصان ركلة قوية إلى فم الأسد فتراجع هذا ووثب فـى الهـواء ، لكن الحصان بادره بركلة فى بطنه .. أتبعها بعدة رفسات .. فـى النـهاية سال الدم من فم الأسد وسقط ميتًا ..

هنا فقط يصحو الأخ (رستم) من نومه الثقيل ..

رأى المذبحة فلم يمتدح شجاعة الحصان .. فقط قال له فى غيظ :

ـ « لا أحب المجازفة .. لو مزقك هذا الأسد لكان على أن أجتاز الصحراء وحدى .. كان عليك أن توقظنى ! »

ثم نهض وواصل رحلته وهو متعكِّر المزاج ..

الحق أن رحلة الصحراء كانت عسيرة بحق .. الشمس تعتقد ألا عمل لها سوى أن تحيله إلى شواء .. والظمأ لا يوصف .. دعك من الحقيقة التى لم يصارح بها نفسه : لقد ضل الطريق ..

أخيرًا توقف ، وراح يجفف العرق عن جبينه فقط ليجد ألا عرق هنالك ..

نظر للحصان وقدر أن الموت قريب على الأرجح ..

فجأة رأى ظبيًا يجرى .. امتطى حصانه وهتف فى أذنه :

ـ « لا تدعه يهرب منك ! »

لأن الظبى يعرف مكان الماء .. إنه ذاهب إلى ينبوع أو آت من ينبوع .. وهكذا بدأت مطاردة رهيبة فوق كثبان

الرمل بين الظبى وبين الفرس .. ولو عرفَ الظبى أن من يطارده صرعه الظمأ لا الجوع لهدأ نوعًا .. إن البطل بحاجة إلى الماء لا اللحم ..

فى النهاية رأى (رستم) الينبوع ، فأطلق صرخة عظيمة لم تخرج من حلقه الجاف .. ووثب فى الماء يعبُّ منه كالحيتان .. بينما غمر الحصان نفسه كلية فى ينبوع الحياة هذا ..

لا تفسير لوجود الظبى إلا إنها علامة .. معجزة ما .. الإله لا يريد لـ (رستم) أن يموت الآن وبهذه الطريقة .. لكن (رستم) على كل حال اصطاد الظبى وشواه على سبيل العرفان بالجميل ..

جوار النهر رقد (رستم) وعاد يمارس عادته القديمة : النوم كالصخرة ..

أما الحصان فوقف قربه يتشمم الهواء .

ما لا يعرفه (رستم) هو أن هذا المكان مسكن تنين .. تنين فارسى عصبى لا يوحى بالثقة كثيرًا .. وقد جاء يجر ذيله العملاق ، ووقف يراقب النائم ..

هنا اسقط في يد الحصان .. هل يحارب التنين مخالفًا أوامر فارسه أم يوقظه ؟ هكذا قرر أن يلجأ للأحوط .. ووجه ضربة بحافره إلى خصر (رستم) النائم ..

ـ « آى !! »

وصحا (رستم) متعكر المزاج .. نظر حوله ثم إلى الحصان .. طبعًا قد اختفى التنين عن العيان .. هكذا نظر للحصان نظرة يقدح منها الشرر ردَّ عليها الحصان بنظرة خجلى كسيرة .. سوف نكتشف من الشاهنامه أن هذا الحصان حكيم جدًا ، وأن (رستم) يظلمه طيلة الوقت ..

عاد (رستم) للنوم وعاد حصانه يراقب المكان في توتر ..

بعد قليل عاد التنين يطل برأسه المليء بالحراشف .. إنه من طراز التنينات الوقحة إذن ..

ومن جديد يهز الحصان فارسه ليوقظه ، ومن جديد يفر التنين فيستشيط (رستم) غضبًا .. لا تحاول إزعاج نوم (رستم) وإلا ندمت ندمًا شديدًا .. كل أبطال الملاحم مثله ..

في هذه المرة أقسم (رستم) قسمًا مغلظًا أن الحصان لو أيقظه مرة ثالثة ، فلسوف يحز عنقه ويجتاز الصحراء راجلاً ..

الآن تأتى المرة الثالثـة .. لابد من ثـلاث مـرات وثـلاث ليال وثلاث فتيات أو ساحرات .. إنه الرقم ثلاثة الملغز يطل من جديد كعادته ..

يطل التنين برأسه .. ويقرر الحصان أن يجازف بحياته ليوقظ (رستم) ..

لكن لحسن حظ الحصان رأى (رستم) التنين العملاق الذى يحوم حول النبع ..

هبَّ ممسكًا بسيفه ، واتخذ وضعًا قتاليًّا ..

قال التنين (وكل التنينات فى هذا العالم تتكلم بلباقة) :

ـ « ما اسمك أيها الفارس ؟ لأن المرأة التى حملتك ستبكى بكاء حارًا الليلة .. »

صاح البطل وهو يهوى بسيفه :

ـ « أنا (رستم) !! »

والآن يدور الصراع الرهيب بين (رستم) والتنين .. صراع لا يمكن وصفه إلا بمشـاهدته .. التنين يهجم بأسنانه السامة ويحاور البطل ، والبطل يهجم بسيفه البتار .. و(راخاش) يساعده بحوافره وصهيله ..

فى النهاية استطاع أن يسدد ضربة إلى صميم قلب الوحش فزأر ، ثم هوى يتشحط فى دمه ، وتلوّن ماء النبع بالدم ..

مدّ يده وربّت على عنق الحصان .. لكنه سينسى هذا الموقف سريعًا كما سنرى ..

ويواصل (رستم) رحلته التى نسينا هدفها .. يمكنك أن ترجع للفصل السابق لو أردت ؛ لتتذكر أما أنا فلا وقت لدى . إذ يجب أن أصف لك تلك المأدبة التى وجدها البطل بين الأشجار ..

مأدبة رائعة بها ما لذّ وطاب من طعام وشراب ، و(رستم) كان جائعًا بحق الآن .. بعد النوم وبعد قتل التنين .. لهذا انقضّ على الطعام انقضاضًا ..

أكل وشرب كثيرًا ، ثم قرر أنه سعيد وأن الوقت قد حان للغناء .. لهذا رفع عقيرته وبصوت جدير بأبطال الملاحم أنشد :

ـ « أنا (رستم) .. أنا ابن (زال) العظيم .. إلخ .. إلخ .. »

هنا سـمع صـوت خطـوات تـأتى مـن خلفـه .. لا يعـرف السبب فى الرجفة التى انتابتـه لكنـه التفـت ، فوجدهـا فتـاة حسناء تصغى لغنائه فى انبـهار ..

قالت فى رفق :

ـ « إذن أنت (رستم) بطل الأبطال ! »

قال فى خجل :

ـ « أنا (رستم) بطل الأبطال ..»

مدت يدها تضعها علـى معصمـه رقيقـة بـاردة .. لكنهـا بعثت المزيد من التقزز فى دمه ، وقالت :

ـ « احك لى قصتك »

قال وهو يصبُّ لنفسه المزيد من الشراب :

ـ « قصة طويلة .. لكن بفضل (أرمازد) العظيم قد بقيت حيًا حتى ..»

ما هذا ؟ هل تبدَّلت ملامح تلـك الفتـاة عندمـا ذكـر اسـم (أرمازد) ؟ قرر أن يتأكد فواصل الكلام :

ـ « ولما جاء التنين ابتهلت إلى (أرمازد) كى .. »

من جديد تبدَّلت ملامحها لربع ثانية .. هكذا قرر أن يتأكد أكثر فراح يكرر في خبث :

ـ « لأن (أرمازد) هو (أرمازد) الذي يفعل ما يفعله (أرمازد) ولا يفعل شيئًا لا يفعله (أرمازد) و.. »

الآن صارت ملامحها ثابتة .. ساحرة شمطاء عجوز خلا فمها من الأسنان ، وتغضَّن وجهها كالمومياوات .. ولم تكن لها عينان .. لقد غطت أذنيها وصرخت في جنون :

ـ « كفى ى ى ى ى ى !! »

كانت ساحرة .. كانت هي صاحبة تلك المأدبة التي جلس يأكل عليها .. ومن الواضح أنها كانت ستفعل به ما تفعله الساحرات عامة .. ولكنها لم تتحمل ذكر اسم (أرمازد) ..

جرت هاربة لكنه أطلق عليها حبله الذي صنعه على شكل أنشوطة ، ثم جذبها إليه وقبل أن تعي ما يحدث كان قد قسمها إلى نصفين بسيفه ..

ويواصل (رستم) رحلته بحثًا عن (كاي كاوس) الأحمق الذي سقط في الأسر كطفل ..

أخيرًا وصل إلـى أرض خضـراء جميلـة ، لكنهـا لا تـرى الشمس ولا النجوم .. ترك حصانـه يرعـى واستلقى على الكلأ يتأمل السماء التى لا تحوى أى شىء على الإطلاق ..

لابد أنه أوشك على النوم حينما شعر بضربة قويـة علـى أصابع قدميه ..

نهض مغضبًا ليجد رجلاً ثائرًا .. رجلاً ثائرًا يلومـه علـى أن تـرك حصانـه يرعـى فـى أرضـه .. كـان الرجــل أحمــق بالطبع ، لأنه لا احد يضرب (رستم) بالعصـا علـى اصابع قدميه ما لم يكن يرغب فى الانتحار ..

لقد نهض (رستم) وانتزع أذنى الرجل ..

صرخ الرجل ألمًا فهرعـت مجموعـة مـن الحـراس لنجدتـه .. هكذا انتزع (رسـتم) سيفه وأطـار أعنـاقهم جميعًا ، ثم استدار إلى الرجل وقال له فى غيظ :

ـ « قل لى أين أجد التنين (ديف) الأبيض !! »

برهن الرجل بحق على أن الأذن الخارجية لا علاقـة لهـا بالسمع ، وقال وهو يرتجف :

ـ « سوف تعبر سبع بوابات تقودك إلى الجحيم .. »

ـ « جميل .. هذا يناسبنى .. »

ـ « لكن لا أنصحك بالدخول ليلاً .. إن (ديف) ينام في الصباح .. في ضوء الشمس .. هذا سيجعل فرصك أفضل .. »

هكذا يجتاز (رستم) الأبواب السبعة التى لا تصفها الملحمة بدقة ، لكن بوسعنا تخيل ما حدث .. كان الأمر سيئًا بما يكفى ..

فى النهاية وجد نفسه عند مدخل عرين (ديف) ..

رائحة الهواء تنذر بالموت .. وثمة شىء فى الموقف كله يذكرك باقتحام (ثيذيوس) عرين (ميدوسا) فى الأساطير الإغريقية ..

اجتاز (رستم) المدخل متوترًا .. وفى هذه اللحظة رأى جبلاً يسد العرين .. إنه (ديف) نفسه ..

حمل صخرة عملاقة وألقاها على الوحش .. فتنبه (ديف) وانقض على البطل ..

قال (رستم) فى نفسه : لو نجوت من هذا الصراع فلن يمسنى الضر أبدًا !

ودار صراع مرعب ..

وفى النهاية استطاع (رستم) أن يغمد سيفه فى قلب التنين العملاق ، ثم انتزع رأسه .. ولم ينس أن يملأ عدة زجاجات بالدم ..

مـن هـذا الموضـع خـرج يبحـث عـن مكـان (كـاى كاووس) ..

وجده مع رفاقه لا يبصرون شيئًا فى أسرهم ، فسكب دم التنين فى وجوههم من ثم عادوا يبصرون ..

وهكذا تحرر شاه (إيران) .. بفضل (رستم) الذى خاض كل هذه الصعاب من أجلـه .. لكن الأحداث سترينا كيف أن الرجلين اصطدما بسبب كبرياء كل منهما ..

★ ★ ★

على أن (رستم) لم يضـيّع وقتـه فـى هـذه الأثنـاء .. هناك تلك المواجهةّ المهمة جدًّا مع (أصفنديار) .. دعنـى أخبرك بالقصة بسرعة ..

كان هنـاك ملك إيرانى اسمه (كرشاسب) .. له ابـن اسمه (إصفنديار) .. لأسباب لا تعنينا ـ لأنها تتعلق بأسرار البيوت ـ قام الأب بحبس ابنه فى إحدى القلاع ، وحرمه ميراث العرش .. إن (أصفنديار) هو واحد مـن عدد هائل من أبناء الملوك

الذين لن يرثوا الملك فى الشاهنامه .. من هنا تبدأ قصة (هفتخوان أصفنديار) أو (العقبات السبع) ..

دخل الأب وحده فى حرب طويلة مع وغد يدعى (أرجاسب) ملك (تــوران) ؛ ولأن الوغــد قــوى فقــد هــزم (كرشاسب) وقتل له ٣٨ ابنًا وأسر ابنتيه .. حوصر رجاله حتى اضطروا إلى ذبح خيولهم لأكلها ..

استدعى (كرشاسب) عرافه الخاص وسأله :

ـ « هل من مخرج لهذا ؟ »

فكّر العرّاف قليلاً ، ثم راح يمارس طقوسهم المعتادة .. فى النهاية قال :

ـ « لن ينقذ الإيرانيين إلا ولدك (أصفنديار) .. »

كان الخبر سيئًا على (كرشاسب) ، وقد حاول تجاهله لفترة ، لكن رؤية حال شعبه جعلته مضطرًا إلى الضغط على كبريائه .. إن موقف استدعاء البطل لينقذ شعبه خالد فى الملاحم على كل حال ..

هكذا أرسل الملك وفدًا إلى محبس ابنه يخبره بذلك .. على الفور نسى الفتى كبرياءه الشخصى وهَبَّ لنجدة قومه ..

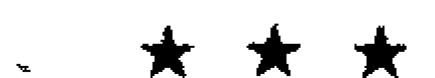
من هنـا تبدأ الملحمـة الفرعيـة التـى تنتهـى بانتصـار (أصفنديـار) وفتـح القلعـة الفولاذيـة (روئيـن ذز) ، وتحرير أختيه من الوغد التورانى ..

عـاد (أصـفنديار) إلى أبيه متوقعًا معاملة آدمية نوعًا ، وطالب بالعـرش لكن الأب اشـترط عليـه أن يهـزم (رسـتم) أولاً ، لأنـه لـم يبـد لـه أى ولاء .. هنـــا نغمـــة تتكـرر فـى الشاهنامه .. تضحية الحاكم بابنه من أجل أن يحكم ..

سمع (رستم) بقدوم (أصفنديار) وكان يعرف مدى قوته ، فبـدأ يقلـق .. ذهـب إلـى (سـيمورج) مستشـاره الاستراتيجى ليستشيره .. إن (سيمورج) عملاق مجنح يبدو كطائر طاووس له رأس كلب ومخـالب أسـد .. يعيش حيث يوجد الماء .. لقد رأى دمار العالم ثلاث مرات مـن قبل .. وعلمه يشـمل عدة قـرون .. لهـذا كـانت نصيحتـه ذات أهمية خاصة .

أوصاه (سيمورج) بأنٍ يصنع سهمًا ذا رأسين يفقأ به عين (أصفنديار) .. هكذا تمكّن (رسـتم) مـن هزيمـة البطـل الثائر .. لكن (رستم) عاد مثخنًا بالجراح ، حتى إنه اتجـه إلى العنقاء لتداويه وتستخرج السهام بمنقارها .. ثم مسـحت على جروحه بريشتها المغموسة باللبن ..

إن العنقاوات فى هذه الملحمة مثقفات جدًا وتجدن أشياء عديدة إلى جانب رعاية الأطفال والتوليد .. على كل حال كانت لحظات مريرة تنتظر (رستم) .. فهو لم يخلق كى يستمتع بالنصر أبدًا ..



٥ـ قصة حب عابرة ..

بداية غريبة لقصة حب ..

لقد صحا (رستم) من نومه شاعرًا بالجوع .. وجوع (رستم) ليس بالضبط حادثًا بسيطًا .. إنه مذبحة .. ليس من الطراز الذى يبحث فى الثلاجة عن بيضة أو قطعة جبن قديمة بل هو بحاجة إلى لحم بغال .. الكثير منه .. يجب أن نتذكر هنا أن الشاهنامه تعج بالحمر الوحشية .. حمر وحشية فى إيران ! هل تكفل الأخ (رستم) وحده بانقراض هذه الحيوانات البائسة ؟ لا أدرى ..

هكذا أعد سهامه واتجه نحو حصانه (راخاش) ووضع عليه السرج ..

حوافر الحصان تهدر قرب غابات (توران) .. قرب مدينة (سامنجان) .. الهواء يضرب البطل الإيرانى فى صدره فينعشه هذا بينما يمكن أن يقتل من هو مثلنا .

(رستم) .. من مثل (رستم) ؟ الرجل والحصان كيان واحد مهيب شامخ جدير بالملاحم والأساطير ..

هـذا بغـل .. يطلق السهم فيسقط الحيـوان يتشـحط فـى دمائه .. هكذا يجلس (رسـتم) ويشـعل نـارًا ثم يشـوى البغـل عليهـا ، ويلتهمــه مـرة واحــدة .. ليــس هــذا فحسب .. إن الملحمـة تصر علـى أن يهشم العظام طلبًـا للنخـاع اللـذيذ .. هـذا رجل شجاع لا يخشى الكولسـتيرول إذن ..

صوت شىء يتحرك بين الأغصان ..

أمسك بسيفه وهبَّ متحفزًا .. هنـا تبـاعدت الأغصـان أكثر فرأى رجـلاً عملاقًـا يخرج مـن بينهـا .. رجـلاً يلبس فراء فهد وله لحية عملاقة مضفرة مدرجـة . الحقيقـة أن التشابه بينهما قوى جدًّا كأنهما ينتميان لعالم واحد ..

قال الرجل القادم :

ـ « معذرة .. أنا أبحث عمَّن يدعى (أوتنابشتيم) .. هل تعرف أين هو ؟ »

هنا تنفَّس (رستم) الصُعَدُاء وأنزل سيفه .. وهتف :

ـ « (جلجاميش) ! كدت أقتلك ! »

(جلجاميش) بطل الملحمـة البابلية .. من الطبيعى فى

هذا العالم أن يلتقى هؤلاء الأبطـال مـن حيـن لآخـر .. قـال (جلجاميش) وهو يشق طريقه للخروج :

ـ « أنا أبحث عن سر الخلود .. »

ـ « وأنا كنت أبحث عن بغل برى .. »

ـ « فرصة طيبة أيها الزميل .. »

وابتعد (جلجاميش) بينما (رستم) يراقبه فى فضـول .. لا يمكـن أن تعتـبره ضعيفـا .. إن هـؤلاء البـابليين أقـويـاء حقًا .. لقد سمع عنه لكنـه لـم يـره رأى العيـن إلا الآن .. من يدرى ؟ ربما يتصارع معه ذات مرة .. بل هـو يتـوق إلى هذا لكن الملحمتين لم تمتزجا قط للأسف ..

أخيرًا شعر البطل بأجفانه تتثـاقل بشـكل لذيـذ .. إن مـن حقّه بعض الراحة بعد وجبـة الإفطـار إلـى أن تحيـن سـاعة الغداء وهـى مذبحـة أخـرى .. هكـذا تمـدد علـى الكـلأ ، وسرعان ما تعالى شخيره الملحمى ..

الصمت ..

ثمة شىء يتحرك بين الأشجار ..

يظهر سبعة فرسان يبدو أنهم ينوون شيئًا شريرًا .. يخـرج

أولهم من مكمنه ويقذف أنشوطة على الحصان العظيم .. يثب الحصان فى الهواء ويقف على قائمتيه الخلفيتين ويصهل ، ثم ينطلق نحوهم لا يلوى على شىء .. يضرب هذا ويرفس ذاك .. كأنه يصارع أسدًا .. لكم من أسد قتله (راخاش) بحوافره من قبل فماذا عن حفنة من الرجال ؟

كل هذا والأخ (رستم) نائم .. هذه هى مشكلة أبطال الملاحم . إنهم ينامون كالجلاميد .. تصوَّرْ هذه الحرب تدور على بعد خطوات منه وهو نائم لا يشعر بشىء ! وهو ما رأيناه مع الزميل (جلجاميش) البابلى الذى فقد فرصته فى الخلود لأنه نام أسبوعًا كاملاً ..

رجل آخر يقذف أنشوطة .. تلتف حول ساق (راخاش) .. أخيرًا تغلب الكثرة الشجاعة ويتهاوى الفرس النبيل عاجزًا عن القتال أكثر ، من ثم يجره الرجال جرًا هاربين به ..

أخيرًا وقد بدأ يشعر بالجوع استيقظ (رستم) العظيم ..

كان الوقت عصرًا .. وقد بحث عن حصانه ليركبه بحثًا عن بغل جديد .. هنا لم يجده ..

صاح بصوت ارتجت له الغابة :

ـ « كيف من دون حصانى أحارب الترك وأعبر الصحراء ؟! »

وعلى الأرض لمح علامات المعركة .. سوف يندم هؤلاء .. أمهات كثيرات سيبكين هذه الليلة بالذات ..

وفاردًا صدره اتجه نحو المدينة عازمًا على تحطيم رأس أول من يقابله ..

★ ★ ★

خرج له ملك (سامنجان) واعتذر له بشدة ..

ـ « نحن لا نستطيع السيطرة على كل لص .. لا يعنى وقوع الحادث قرب مدينتى أن لنا دخلاً فيه .. »

ثم دعـاه إلى الشراب والعشاء .. فقبل البطل الإيرانى العرض .. إن الجوع بدأ يمزّق أحشاءه .. ولابد أنه راح يردد من تحت شاربه الكث :

ـ « بغال ! بغال مشوية ! بغال ! »

هكذا أكل كأفراس النهر وشرب كالحيتان .. ثم تثاءب ..

من وراء ستار كانت (عبير) تراقبه فى إعجاب ، وبدت لها طريقته فى الأكل غاية فى الرقى والأناقة .. كانت قد قررت أن تظفر به ..

قال له الملك أخيرًا وهو يمسح فمه :

ـ « من حقك أن تستريح .. كان يومك عصيبًا .. »

ـ « هذا حق .. لكن الغد سيكون عصيبًا أكثر على رأس من سرق حصانى .. »

اقتادوه إلى مخدع جميل تحيط به الستائر .. هناك طاووس أو اثنان ، وهناك الطبق الأزلى المليء بالعنب والكمثرى ، والدورق الذهبى إياه ..

استلقى على الفراش وغاب فى سبات عميق ..

ليس عميقًا إلى هذا الحد ، لأنه سمع الأصوات قرب الفجر ..

هَبَّ من الفراش .. ونظر إلى القادم فى شراسة .. لكن القادم لم يكن أسدًا .. كان جارية جميلة معها فتاة تغطى وجهها بنقاب .. هذه الفتاة ذات النقاب كانت (عبير) أو (تهمينة) ابنة الملك .. إنها تلعب الآن دورًا جديدًا من الأدوار النسائية فى الملحمة ..

هزت الجارية رأسها ، وانصرفت بينما اقتربت منه (عبير) ..

لم يكن معتادًا الرقة ، وقد بدا له هذا الاقتحام لمخدعه عملاً عدوانيًا ينذر بالشر .. لذا لوى ذراعها بإحدى حركات المصارعة اليابانية وكاد يهشم عنقها لكنها صاحت فى رعب :

ـ « أنا ابنة الملك .. أنا (تهمينة) ! »

أطلق سراحها فقالت متأففةً :

ـ « يا لك من ثور ! »

ثم قالت فى برود :

ـ « حصانك عندى ! »

ارتفع حاجباه فى غباء فقالت :

ـ « ألم تفهم بعد ؟ كانت هـذه لعبـة لاجتذابك إلـى المدينـة .. أنا من أرسل الرجال لسرقة الحصان .. »

كوَّر قبضتيه وصدر عنه خوار كالثور ، فقالت مهدئة :

ـ « كُفَّ عن هـذا .. ليست هـذه مبـاراة مصارعة .. الموضـوع بكل بساطة هـو إعجاب فتـاة ببطـل الأبطـال .. دعنى أصارحك أن أى رجل لم ير وجهى قط من وراء هـذا النقـاب .. والسبب ؛ لأنه ما من رجل يستأهل أن يرى هـذا الجمال .. كلهم رخو ضعيف مدلل .. أما (تهمينة) فجائزة للرجل الوحيد الحقيقى فى هذا العالم .. »

وكشفت عن وجهها ..

إن الأمر متروك لخيالك ، لكن (رستم) حسب للحظة أن القمر العابث تسلل إلى مخدعه .. حقًا لم يكن هذا جمالاً أرضيًا .. فلو لم يكن لـ (رستم) فمن يستحقه ؟

قالت له وهى تصلح خصلات شعرها :

ـ « أنا من نسل الفهد والأسد .. لكنى أعرف أنك لا تخاف الفهد ولا الأسد .. بل إنك صارعت التنين (ديف) .. أنت أنت بطل الأبطال .. رمز بلاد فارس .. قاهر الترك .. ابن (زال) العظيم .. ربيب العنقاء ! »

كانت هذه أجرأ عبارات تلفظت بها (عبير) حتى فى (فانتازيا) .. لكن الملحمة كانت تحتم هذا .. لقد خطبته لنفسها لكنها ستترك الأحمق يعتقد أنه من أراد هذا .. هكذا النساء فى كل مكان وزمان يقنعن الرجال بأنهم من اختاروا وأنهم من أرادوا ..

فى الصباح طلب يدها من أبيها .. أعتقد أنه نسى موضوع الحصان تمامًا ..

وهكذا عاشا أيامًا من الأفراح والليالى الملاح .. لكن هؤلاء الأبطال كالبراغيث .. يستحيل أن تحبسهم فى الموضع ذاته أكثر من دقائق ، وفى النهاية أعلن لها أنه يجب أن يرحل ..

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لأننى بطل ملحمة .. لو بقيت هنا فعن أى شىء سيكتب الشعراء ؟ لم نقرأ من قبل ملحمة عن رجل عاش سعيدًا مع زوجته ومات .. لابد من متاعب .. الكثير منها .. »

بصعوبة تماسكت (تهمينة) .. كانت على وشك الانفجار باكية .. كانت تعرف هذا الطراز من الرجال .. لن يعود أبدًا .. إن لديه من المشاكل ما يكفيه ، ولن تراه يومًا يأخذ صغيرها من يده إلى المدرسة ..

مد يده فى صدره فأخرج جوهرة ..

ـ « ما هذه ؟ »

ـ « جوهرة .. »

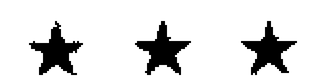
ـ « يا سلام .. أعرف هذا .. لكن ما دورها ؟ »

ـ « لو أنجبت فتاة فلتعلقيها على صدرها لتحميها من الشر .. لو أنجبت فتى فلتربطيها على ذراعه .. سوف يكون قويًّا مثل (كيريمان) ، ضخمًا مثل (سام بن ناريمان) ، وطلق الكلام مثل (زال) أبى .. »

ثم ودعها وودع حماه ..

وانطلق على صهوة حصانه ـ الذى نسى أمره فترة لا بأس بها ـ يسابق الريح ..

لا أعتقد أن الأخ (رستم) من النوع العاطفى .. أعتقد أنه ما إن رأى الغابة من جديد حتى نسى كل شىء عن هذه الفاتنة .. ربما بدأ يفكر فى البغال المشوية . لا أعرف .. المهم أنه لم يخبر أحدًا قط بهذه القصة ..



٦ ـ اسـمه صحراب ..

بداندیش کش روز نیکی مباد

سخنهای نیکم به بدکرد یاد

بر •إدشا •یکرم زینت کرد

فروزنده اختر •و أن•شت کرد

★ ★ ★

الآن مرت تسعة أقمار .

من التجارب المروعة فى (فانتازيا) تجربة الولادة .. تخوضها (عبير) للمرة الثانية على الطريقة الفارسية حيث لا تعقيم ولا مسكنات ألم ولا شىء من أى نوع .. فقط القهرمانات الفارسيات يهدئن روعها ويطالبنها بالمزيد من الدفع .. وهذه المرة لا توجد عنقاء مولدة ..

فى النهاية زال الألم فجأة ودوّت صرخات ولى العهد ..

جاء الأب ليربّت على شعرها المبتل بالعرق ، ثم حمل حفيده المعلق كقرد تعس فى الهواء وصاح :

ـ « أنت قوى جميل كأبيك .. سوف يكون اسمك (صُحراب) ! »

برغم إنها كانت مريضة مفككة الأوصال رفعت (عبير) رأسها من الفراش وهتفت فى اشمئزاز :

ـ « (صُحراب) ؟ »

لكن يبدو أن هذا الاسم رشيق موسيقى جدًّا للأذن الفارسية .. إن الجد الفخور مُصِرٌّ كالجحيم ، وهكذا قالت (عبير) لنفسها : (صحراب) .. (صحراب) .. ليكن .. إن اسمك (تهمينة) وهو لا يقل سوءًا ..

كان نمو الطفل مروعًا كأنه الدودة الشريطية .. فى سن خمس سنوات صار خبيرًا فى المبارزة والمصارعة .. يبدو أن بعض جينات (أدهم صبرى) تسربَّت إليه .. فى سن العاشرة صار قادرًا على هزيمة كل من يصارعه ..

وتجلس (تهمينة) ترقب فى ذعر هذا الشىء الذى خرج من بطنها والذى يناديها (ماما) .. إن الأرض لترتج تحت قدميه ، وإن صوته ليكفى كى يتخثر اللبن فى الجرار ..

سألها :

ـ « من أبى يا أماه ؟ »

كانت ترغب فى الكتمان لكن عصبيته كانت ترعبها ، لـذا أجابته ذات مرة :

ـ « لك أن تفخر وتسعد ؛ لأن أباك هو (رستم) العظيم .. لكن لا تخبر أحدًا بذلك لأن أعداء (رستم) كثيرون وبالتأكيد يسعدهم أن يمزقوا حنجرة ابنه .. »

هنا ضحك الفتى بصوت عال كأنه يصرخ :

ـ « يمزقون حنجرتى ؟ ها ! »

كان يبحث عن المشاكل .. هذا الشلال المقيم فى عضلاته يبحث عن مجرى ينساب فيه .. وجاء اليوم الذى جاءها فيه ليخبرها بمشروعاته :

ـ « سوف أسيطر على إيران .. سأنهى حكم (كاى كاوس) .. ثم أجعلك أنت ملكة إيران وأهدى البلاد كلها لأبى .. »

لم تستطع (عبير) الكلام لأن مشاريعه الطموح أصابتها بالهلع ..

إنه مثل أبيه مستحيل الإقناع .. لن تنجح أبدًا .. لكن الأمر سخيف بل هو السخف ذاته .. هذا الصبى الغرير يريد أن يحكم إيران .. لو أراد أبوه لفعلها .. الحقيقة أنه لا مكان

لها فى هذا العالم الذكورىّ المرعب .. النساء هنا زوجات أو حبيبات أو ميتات ..

لكن الصبى لم يهمد قط بعد هذا .. لقد أعلن أن كل شىء جاهز .. فقط هو بحاجة إلى حصان لا يقل عن حصان أبيه (راكاخ) ..

أخيرًا عرض عليه أحد الفلاحين حصانًا ممتازًا .. أخبره أنه من نسل (راكاخ) .. تحسس الفتى عنق الحصان وضغط على ظهره عدة مرات فقاومه الحصان كأن فى ظهره يايًا قويًا .. هنا هتف الفتى :

ـ « أما وقد صار عندى حصان مثلك فالعالم صار حالك السواد بالنسبة لكثيرين .. »

كان الجد جالسًا أمام التليفزيون مع الأم القلقة .. حينما دخل (صحراب) القاعة ..

نظر له الملك متسائلاً .. فقال الفتى :

ـ « جدو .. أنا راغب فى قهر إيران .. »

كان هذا طلبًا غريبًا يدل على الحماس الأبله لكن الجد سُرَّ لهذا .. أمثال هذا الفتى الثرى يقضون وقتهم فى معاكسة الفتيات ومرافقة أصدقاء السوء ، فمن الجميل أن يصبو هذا الفتى إلى عظائم الأمور ..

قالت (عبير) وهى ترتجف رعبًا :

ـ « كنت أفضل لو عاكس الفتيات بدلاً من هذه الأحـلام المجنونة .. »

لكن كان للجد رأى آخر .. نهض إلى الخزائن فأخرج منهـا كل شىء .. غمر الفتى بالذهب والفضة .. وتمنى له حظًـا حسنًا ..

فى هذا الوقت بلغت الأخبار مسمع الذئب (أفراسياب) .. عدو (رستم) التقليدى ..

قال له تابعه :

ـ « إن ابن الأسد يريد أن يكون أسدًا بدوره ! »

هز (أفراسياب) رأسه .. وبدا عليه الرضا .. وقال :

ـ « أعرف .. وهذا مفيد حقًّا .. إننى سـأوجّه إلى (رستم) ضربة تتحدث بها الملاحم ! »

★ ★ ★

فـى اليوم التـالى وصـل وفـد محمـل بالهدايــا مــن عنــد (أفراسياب) ..

كان الوفد يحمل رسالة مهمة : إن (أفراسياب) متحمس ولسوف يساعدك على غزو إيران ..

هكذا لم يحتج الفتى الأخرق إلى مزيد من الحماس .. بالطبع أرضى غروره أنه صار مهمًا كالكبار .. خطط وتآمر ووفود تحمل الهدايا .. وعمو (أفراسياب) يريد أن يضع يده فى يدك لغزو إيران .. لقد لعبت خمر الزهو بعقله فلم يعد يدرك ما هو مقدم عليه ..

دقت صنج الرحيل وراح الجنود يتصايحون ملوّحين بالسيوف والرماح .. الخيول تصهل .. باختصار كان هذا جزءًا معتادًا من روتين الحياة اليومية هنا .. لابد من بدء الزحف إلى مكان ما ..

هنا خرجت (عبير) ترمق المشهد المهول ، ونادت أخاها (زنده) ..

قالت له بصوت عال لا يسمعه أحد (بسبب الصخب) :

ـ « اسمع .. أنت خال ولدى الأحمق .. أعنى أن ولدى هو الأحمق لا أنت .. لهذا طلبت أن ترافقه كظله .. »

قال فى حماس :

ـ « نعم .. نعم .. أحميه من نفسه .. ربما جرح إصبعه بالسيف أو .. »

قالت فى غيظ :

ـ « لست قلقة عليه من تفاهات كهذه .. أنا قلقة بصـدد شىء أكبر .. »

ثم بدت الجدية على ملامحها التى صارت قاسية وقالت :

ـ « اسـمع .. أخشى فى لحظـة ما أن يقـابل (رستم) ابنــه فيقتتلا .. لاحظ أن أحدهما لم ير الآخـر قـط .. أريد أن تتأكد من أن هذا لن يحدث .. »

أشار إلى عينيه بمعنى أنه سيفعل هذا بأى ثمن .. فبدا عليها الرضا ..

وانطلق الجيش قاصدًا غزو القلعة البيضاء الحصينة التى تحمى إيران ..

فجأة وجدت (عبير) أنها ليست (تهمينة) .. إنها أكثر شبابًا وجمالاً .. والأهم أنها أقـوى .. نظـرت لنفسـها فـى المرآة ، فوجدت أن تكوينها العضلى أقرب لتكوين الرجـال المصارعين ، لكنها لم تُصِرْ رجـلاً .. إنهـا أنثـى .. فقـط أنثى أنضجتها الحروب على غرار الأخت (زينا) ..

وهنـا فهمـت .. إن (فانتازيا) تختـار لهـا الدور الأنثوى

الأقرب لتتمكن من متابعة الملحمة كلها .. إنها تتقمص كل دور نسائى تقريبًا .. مثلما يبدل المصور زاوية الكاميرا ليأخذ لقطة أوضح ..

فى هذه المرة هى جالسة فى القلعة الحصينة .. إنها مدججة بالسلاح والدروع .. أمامها حاكم القلعة وهو رجل يدعى (هجير) .. وهناك رجل مسن يطلقون عليه اسم (جوستاهيم) الشجاع .. أما هى فابنة الحاكم .. اسمها (جوردافريد) .. وفى سرها دعت الله أن تتذكر هذا الاسم ..

كان (هجير) يدق على المنضدة بيده صائحًا :

ـ « هذا الفتى الأخرق (صحراب) .. يهددنى أنا ! يطلب منى مغادرة القلعة .. »

وضعت (عبير)/(جوردافريد) حذاءها على المنضدة ، وأفرغت فى جوفها كوبًا كاملاً من الشراب ، ثم أرجعت رأسها للوراء وضحكت فى وحشية :

ـ « إنه لن يحتفظ برقبته على كتفيه طويلاً يا أبى ! »

قال (هجير) وهو يدق على المنضدة من جديد :

ـ « سوف أرسلها هدية للشاه (كاى كاووس) ليعرف مصير من يهددون أمن بلاده ! »

هنا قال (جوستاهيم) الشجاع وهو يرتجف رعبًا :

ـ « سـوف أكتب للشـاه أخبـره بما يحدث .. لابـد أن يعرف .. »

الحقيقة أن أحد هؤلاء لا يعرف أنهم يتكلمـون عن ابن (رستم) ، ولو عرفوا لما كانوا بهذه الثقة ..

المهم أن الجيشين التحما .. لم يكن (صحراب) سيئًا وقد استطاع أن يهزم جيش (هجير) خارج الأسـوار ويأسره هو نفسه ..

لكن الأمر ليس بهذه البساطة ..

اتجهت (عبير) إلى غرفتها فبحثت عن ثياب فـارس .. ثياب رجل مغبرة توحى بقوة الشكيمة ، ثم حملت جعبة السهام ، وحملت سيفًا ورمحًا وركبت حصانها .. إنها (جوردافريد) .. إنها ابنة (هجير) .. دماء غاضبة تجرى فى عروقها ، وتشعر بأنها قادرة على سحق جيش من ذوى الشوارب ..

وضعت اللثام على وجهها القسيم ، وخرجـت مـن القلعـة وحصانها يبعثر الشرر تحت حافريه . لابد أنهـا بـدت فاتنـة فى هذه اللحظات ..

ثم لوحت برمحها وبصوت غليظ لم تفتعله صاحت :

ـ « إلىّ أيها الجبناء ! من يرغب فى منازلتى ؟ »

وسط الجنود الذين اصطفوا وقف رجل بريطانى بثياب عصرية نوعًا .. كان يحمل مفكرة يدون فيها التفاصيل .. سألته (عبير) من فوق صهوة حصانها :

ـ « ماذا يفعل الأخ هنا ؟ هل أنت مراسل حربى ؟ »

انحنى الرجل فى وقار ونزع قبعته وقال :

ـ « محسوبك الإنجليزى (ماتيو أرنولد Matthew Arnold) . أنا الكاتب سعيد الحظ الذى سيقدم هذه الأسطورة للقارئ الغربى ، عن طريقى سيعرف قارئ الإنجليزية من هو (صحراب) ومن هو (رستم) .. ولسوف يبكى البريطانيون كلما قرءوا هذه المأساة»

فهمت .. إنه يقوم بذات الدور الذى كان يلعبه (هوميروس) عندما كانت فى جيش (طروادة) .. لذا قالت له بلا مبالاة :

ـ « ليكن .. راقب لكن كن حذرًا .. إن هذه الحرب ليست لعبة ولا قصيدة شعر .. »

ثم رفعت رأسها لترى رد الفعل على تحديها السابق ..

تقدم فارسان متحمسان من جيش (صحراب) نحو هذا الفارس الوقح .. لكنهما تلقيا درسًا لا بأس به .. أعنى أنهما لم يتلقيا الدرس .. لابد لك من رأس يحتفظ بالمعلومات لو أردت رأيى ..

هنا تقدم (صحراب) .. إن هذا الفارس النبيل جدير به .. فى هذه الحروب قد تقطع رأس خصمك لكنك تحتفظ باحترامك له لو كان شجاعًا .. هذا الفارس وحده يواجه جيش المنتصرين لكنه لا يبالى ..

وقف الفارسان أمام بعضهما .. لحظة يدرس فيها كل منهما الآخر ..

ثم إن (عبير) أخرجت جعبة سهامها وأطلقت سهمًا او اثنين على رأس (صحراب) .. خطر لها أن الموقف غريب .. بصفتها أمه فيما سبق هى تريد حياته ، وبصفتها (جوردافريد) هى ترغب فى موته ..

إن السهام تنطلق .. بذات السرعة كما لو كانت تطلق عليه بندقية آلية ..

لكن الفتى ينحنى ليمر سهمان فوق رأسه ثم يرفع درعه ليتهشم عليه ثلاثة أسهم .. انتهى مطر السهام فهجم على الفارس الجريء بسيفه .. وارتطم النصلان .. لحظات مروعة من القتال .

ـ « إنه قوى ! »

ـ « إنه قوى ! »

كذا دوت الفكرتان فى الذهنين .. فى اللحظة التى طار فيها (صحراب) من فوق حصانه ليضرب الأرض .. لكنه لم يقنط .. انتظر حتى كر عليه الفارس من جديد وثب ليمسك باللجام ويلويه .. من ثم سقط الفارس الجريء من فوق حصانه ، وكانت سقطته أسوأ بكثير ..

أدركت (عبير) أن فرصتها فى إخفاء سرها صارت ضعيفة ؛ لأن (صحراب) سيثب عليها وينزع اللثام حتمًا ، من ثم راحت تركض لتتوارى فى الغابة القريبة ..

لكن (صحراب) ركض وراءها ..

وفى الغابة بعد كر وفر ومراوغة وثب (صحراب) على الفارس الجرىء ، فأسقطه أرضًا .. قال وهو يلهث ويتحسس سيفه :

ـ « لقــد أتعبتنــى أيهـا الشــجاع .. أتعبتنــى حقًــا .. لكـن هناك نهاية لكل شىء .. »

وجثم فوقه ثم نزع اللثام ليتمكّن من إعمال سيفه !!

هنا وقع المشهد المعتاد الذى رأيناه مئات المرات .. لقد ذهل حينمـا وجـد أن ذلـك الفــارس الشــجاع ليـس ســوى امرأة .. امرأة لم ير أجمل منها فى حياته ..

وسقط السيف من يده ..

هو لن يستطيع أن يقتل امرأة بقلب بارد خاصة إذا كـانت بهذا الجمال .. لا حل أمامه سوى أن يأسرها ..

كانت (عبير) منهكة لا تقدر على مزيد من المقاومـة .. و(صحراب) كذلك كان يلهث ككلب فـى يوم قيظ .. لكنهـا استجمعت أنفاسها لتقول :

ـ « ليس من مصلحتك أن يعرف أحد شخصيتى .. »

قال بغباء :

ـ « هل لديك سبب واحد ؟ »

ضحكت فى توحش وهى تجلس وقالت :

ـ « الكل رأى (صحراب) العظيم يسقط عن فرسه ويوشك على أن ينهزم .. تصوَّرْ لو أدركوا أن من هزمه امرأة ! »

كان كلامها منطقيًا وقد أسقط فى يده .. جلس فى غباء يفكر فيما يجب عمله ..

قالت له وهى تنهض وتعيد اللثام إلى وجهها :

ـ « سوف تكون القلعة لك .. سنصل إلى صيغة صلح ما .. »

نهض ومشى وراءها عائدين إلى ساحة القتال ..

فلما دنت من القلعة تحولت ساقاها إلى عجلتين كما يحدث فى الرسوم المتحركة ، وصاحت فى الحرس وهى تثب إلى الداخل :

ـ « أغلقوا الأبواب !! »

هكذا انغلق الباب العملاق تاركًا (صحراب) بالخارج .. كانت حيلة صبيانية جعلت الدم يحتشد فى رأسه .. لم يشعر قط كم هو صبى سخيف إلا فى هذه اللحظة .. الحقيقة أنه مر بذات التجربةالتى مر بها أى بطل ملحمى آخر وأى رجل عمومًا .. إن الرجل لا يتصرف بحكمة وبشكل عقلانى متزن مع الجميلات ..

وفى داخل القلعة نزعت (عبير) ثياب الرجال التى تنكّرت فيها ، وصاحت بصوتها الخشن فى الرجال :

ـ « هلموا ! أنتم تعرفون ما يجب عمله ! »

وعلى الفور انفتحت تلك الطاقة فى الأرضية ، وبسرعة وحسم راح محارب تلو الآخر ينزلق عبر الفتحة ؛ ليفر من ذلك الممر تحت الأرض .. ذلك الممر الذى اتخذه (هجير) كملاذ أخير لأنه لا يهوى الحصار .. ويبدو أن الوقت قد حان لاستخدامه ..

فى النهاية ألقت نظرة إلى القلعة الخالية وتصوّرت الجيش الواقف بالخارج ، ووجه (صحراب) المحتقن كعرف ديك وأطلقت ضحكة وحشية .. ضحكة جعلتها تسعل وتبصق قبل أن تهبط فى النفق بدورها ..

سوف يتلقى (صحراب) صفعة أخرى عندما يقتحم القلعة فى الساعات التالية .

لكنها ما زالت قلقة على أبيها .. إن احتمالات نجاته شبه معدومة ..

★ ★ ★

٧ ـ رستم وصحراب والغزنوى والفردوسى ..

نحن الآن فى وضع فريد .. هات القلم والورقة وحاول أن تفهم وإلا ضعنا معًا ..

(رستم) هو حامى حمى إيران .. ابن (رستم) يريد أن يغزو إيران ليهديها أباه الذى لا يعرفه .. (رستم) يحمى إيران لكنه لا يريد الاستيلاء عليها ، بينما ابنه يريد أن يستولى عليها من أجل أبيه .. أبيه الذى لا يريد ذلك ولا يعرف ابنه ..

هل فهمت شيئًا ؟ إذن أنت رجل سعيد الحظ .. على الأقل فهم (الفردوسى) هذه الحبكة المعقدة وهذا كاف ..

الآن الشاه (كاى كاووس) يستغيث بـ (رستم) ..

قال له رجاله إن (رستم) هو الوحيد القادر على حماية إيران .. لذا كتب رسالة إلى (رستم) وأرسلها مع مبعوث خاص وأمره ألا يتأخر بنبرة تشبه نبرة الكواء حينما يوصى صبيه بألا يلعب أثناء رحلته ..

وصل الرسول إلى (رستم) فى (زابوليستان) .. رحب به البطل ودعاه للجلوس ، لكن هذا ظل واقفًا وهو يجفف عرقه ..

ـ « شكرًا .. لكن لابد أن أعود للشاه حالاً»

قال (رستم) متبسطًا ما معناه (يا أخـى لسـنا يهـودًا حتى نتركك ترحـل هكـذا .. لابـد مـن حـق الضيافـة .. لـم أحسبك بخيلاً) إلـى آخـر هـذه العبـارات المعتـادة .. لكـن الرسول أصر :

ـ « أرجو أن تخبرنى بردك .. »

فكـر (رسـتم) قليـلاً .. أمسـك برســالة الشـاه وراح يتأملها ثم قال وهو يحك لحيته الفارسية العملاقة :

ـ « غريب أمر هذا الـ (صحراب) .. لا يوجـد بطـل بهذه المواصفات فى إيران كلها سواى .. إن لدى ابنًا لكنه مـا زال فـى سـن المراهقـة . مسـتحيل أن يملــك هــذه الصفات .. »

ثم سأل الرسول :

ـ « ألن تبدل ثيابك ؟ لابد من أن تتناول العشاء معى .. »

ـ « لكن قلت لك أيها القائد ...»

ـ « هم م م !! »

وظهرت نظرة مرعبة فى وجـه (رستم) فاضطر الرسول

التعس إلى أن يقبل دعوة العشاء .. جلس على مأدبة العشاء مهمومًا يراقب (رستم) ، وهو يلقى بلحم البغال فى فمه كأنه يعبئ جوالاً .. ثم لابد أن يهشم العظام ليمتص النخاع ..

وفى اليوم التالى طلب أن يسمح له بالعودة فقال له (رستم) ما معناه (يا أخى لسنا يهودًا حتى نتركك ترحل هكذا .. لابد من حق الضيافة .. لم أحسبك بخيلاً) إلى آخر هذه العبارات المعتادة .. وانتهى الأمر بـ « هم م م !! » المعتادة .

كم لبث الضيف المرغم ؟ لبث ثلاثة أيام إلى أن انتهى (رستم) من استضافته ، وهكذا تحرك الركب إلى الشاه ..

منذ وصل (رستم) إلى البلاط حتى شعر بأن الجو عدائى ضده .. وحينما دخل الشاه القاعة انحنى الجميع ما عدا (رستم) طبعًا .. نظر الشاه نظرة نارية إلى (رستم) ولم يقل شيئًا .. ثم اعتلى عرشه وقال بلهجة باردة ما معناه (لسه بدرى !!) ..

ثم نظر إلى رسوله وقال :

ـ « عندما يطلب منك الشاه الإسراع فعليك أن تنفذ بلا مناقشة .. »

نظر الرسول للأرض فى خجل وألقى نظرة لوم عابرة على البطل الإيرانى ..

هنا أدرك (رستم) أن الشاه غاضب ؛ لأنه لم يهرع للقائه عندما طلبه ..

نظر حوله ثم تقدم ليقف فى وسط القاعة ، وهتف بصوت عال :

ـ « (رستم) رجل حر وليس عبدًا إلا لله .. سيفى هو خاتمى .. وحصانى هو عرشى .. وخوذتى هى تاجى .. ومن دونى (كاى كاووس) لا شىء ! »

ثم غادر القاعة مغضبًا بينما الحاشية لا تصدق ما سمعته آذانها .. والشاه كذلك لم يصدق .. لكن من يجرؤ على اعتقال (رستم) أو إعدامه ؟

★ ★ ★

لم تكن الكبرياء مقصورة على (رستم) ..

إن الزمن يغير كل شىء .. وخمسة وثلاثون عامًا هى زمن لا بأس به أبدًا ..

كانت الأخبار تصل إلى (عبير) من بلاط (الغزنوى) .. كانت تفهم طبائع الأشياء ، وتعرف أن قليلين جدًّا من الشعراء

سوف يقبل هذه الحقيقة .. حقيقة أن أباها سينال جنيهين ذهبيين عن كل بيت من الشعر ..

هكذا راح الشعراء يوغرون صدر السلطان على الفردوسى ..

وقد وجدوا ما أرادوا .. أولاً هناك أبيات تمدح الوزير (أبى العباس فضل بن أحمد) ، وكان السلطان قد أقاله قبيل قدوم الفردوسى عند السلطان ليقدم له الشاهنامه ، فكان ذلك من أسباب توتر العلاقة بينهما . أضف لهذا اختلاف الرأى بين الفردوسى والسلطان (محمودٍ) فى القضايا القومية والوطنية : فإن الفردوسى كان رجلاً وطنيًا هائمًا بحب وطنه وقومه ، وكان يشيد بهما وببطولات شعبه ، لكن السلطان لم يكن يؤمن بشىء من هذا ، كان يكره سماع التغنى ببطولات الشعوب الأخرى . وقد قال ذات مرة للفردوسى :

ـ « كتابك هذا لا شىء فيه غير حديث (رستم) ، وفى جيشى تجد ألف رجل مثل (رستم) .. »

قال الفردوسى :

ـ « أطال الله عمر الملك لا أعلم كم من رجالك يشبهون (رستم) ، لكنى أعلم أن الله لم يخلق عبدًا آخر مثله !! »

ثم استأذن الفردوسى ، وخرج من عند الملك فظل هذا ينظر باتجاه رحيله ، ثم قال بصوت كالفحيح :

ـ « هذا الرُجيل اتهمنى بالكذب ! »

هنـا هـب رجـال البـلاط يريـدون الفتـك بالشـاعر ، لكــن السلطان أمرهم بأن يجلسوا حيث هم ..

كما ترى لم تكن العلاقات ناعمة .. تذكر أن كلا الرجلين شديد الكبرياء معتز بنفسه .. لابد من تصـادم عنيـف .. أنـت لا تستطيع وضع سمكتى مقاتل سيامى فى حوض واحد ..

اليوم يعود الفردوسى إلى بـلاط السـلطان فـى (غزنـة) حاملاً قصـيدته المكتمـلة .. هـذه المـرة تختلف .. لقد صــار محنى الظهر يمشى بكثير من العسر .. عيناه تكادان لا تريـان .. خصلات الشعر الأبيض تتدلى من تحت عمامته .. وهى تمشـى بجواره .. لم تعد مراهقة حسناء بل هى امرأة فى منتصـف العمر ..

من جديد يجتازان صفـوف الحـراس والبوابـات .. لكنهـا فى هذه المرة تفتح أسرع لأن السلطان كان ينتظره ..

فى النهاية مشى الشاعر نحـو مجلس السـلطان . السلطان أيضًـا تقـدم فـى العمـر ، لكن السـنين تزيـد الشـاعر إرهاقًـا ونحولاً لكنها زادت السلطان بدانة وحدة طبع ..

ويقف الشاعر أمام السلطان ويقول بصوت واهن :

ـ « لقد انتهت الشاهنامه يا مولاى .. »

لكن (عبير) كانت تتمتع بعينين حادتين ، وقد رأت فى العيون وعلى ملامح السلطان ما لا يوحى بالخير .. لقد حدث شىء ما ..

هذه المرة لم يطلب السلطان سماع شىء ..

قال للفردوسى بلهجة باردة :

ـ « اتركها هنا .. قلت كم بيتًا ؟ سيقوم المحتسبون بالعد ويعطونك قطعة فضة عن كل بيت ! »

سقط قلب (عبير) فى قدميها .. هذا ما كانت تتوقعه .. ليس المبلغ تافهًا لكنها تعرف أباها .. هو سيصر على المبلغ الذى اتفقا عليه منذ أعوام .. ليس لجشعه الشديد ولكن لأن الذهب هو ما يراه التقدير الأوحد لما بذله ..

قال الفردوسى فى صبر :

ـ « لكنك يا مولاى وعدتنى بجنيهين من الذهب عن كل بيت ! »

بنفاد صبر قال السلطان :

ـ « كان هذا منذ زمن .. لقد تغيرت الأوضاع .. هلم اذهب لتأخذ مكافأتك .. »

وتقدم رجلان يجران الشاعر قبل أن يعترض أكثر .. وفى

غرفـة جانبية ناولـوه زكيبـة من الفضـة .. ظل صامتاً لكـن (عبير) كانت تعرف أباها وكانت تعرف ما يفكر فيه ..

أخيرًا وجد نفسه فى الشـارع معها .. وعلـى كتفـه تلـك الزكيبة من الفضة ..

كان هناك زحام من الناس يرمقه .. هنـا فوجئـت بـه يفتـح الزكيبة فيبعثرها على قارعة الطريق .. ويصيح :

ـ « هلموا ! خذوا حاجتكم من أموال السلطان ! هلموا ! »

هرع المارة يتصارعون ويضحكون وهـم يملئـون قبضـاتهم بالمعدن النفيس .. لم يصدقوا ما يرون لكنه حقيقى .. أما أبوها فقد استنقذ قطعة فضة ومشى يتوكأ على ذراعها إلـى أن بلغ بائع عصير علـى قارعـة الطريـق ، فناولـه القطعـة وطلب منه أن يقدم لهما كوبين ..

وراح يشرب ويضحك .. ويضحك ويشرب ..

وأنشـد :

ـ •« و سى سال بردم به شهنامه رنـج

كه شاهم ببخشد به •اداش •نـج

به •اداش ، •نـج مرا در•شاد

به من جز بهاى فقاعى نداد

فقاعى بيرزيدم از •نـج شاه

از آن من فقاعى خريدم براه .. »

أى : لقد عانيت فى إعداد هذه الشاهنامه ثلاثين حولاً ؛ لأكون غنيًا وأنال رتبة ، لكن لم يرنى السلطان أساوى أكثر من كوب عصير ، لذا اشتريت بما قدمه لى عصير فاكهة فى الطريق .. (ويبدو لى أن الفقاعى نوع من عصير الفاكهة عندهم) ..

كانت فرائصها ترتعد .. هذه صفعة عالية موجهة للسلطان ولسوف يسمعها الرجل حتمًا .. إن من لا يحنى هامته أمام الملوك يفقدها سريعًا وهناك عشرات القصص من هذا الطراز ..

لهذا ما إن فرغ أبوها من كوب العصير ـ أغلى كوب فى التاريخ ـ حتى صاحت به :

ـ « هلم نفر الآن ! »

مشى جوارها وهو ينشد :

ـ « نكردى در اين نامه من ن•اه

•فتار بد•وى •شتى ز راه

هر آنكس كه شعر مرا كرد •ست

ن•يردش •ردون •ردنده ، دست »

أى : أنت لم تنظـر إلى رائعتى لأن أعدائى غيروا رأيـك عنى .. لكن من يقلل من شأن شعرى لن يقدره الكون ولـن يأخذ بيده ..

فيمـا بعد سيضاف هذا الهجـوم الشـرس إلـى مقدمـة (الشاهنامه) ولسوف يتساءل أكثر من دارس للفارسية : كيف قرأ السلطان هذا الهجوم عليه ؟ وكيف هاجمه الشاعر قبل أن يحدث ما حدث ؟ يذكرك الأمر بمشـهد (رد سكلتون) الممثل الكوميدى الشهير الذى يخترق الجموع ويصـافح المحـافظ كى يقدم له صورته معه وهو يصـافحه ! الجواب أن هـذا أضيف فيما بعد إلى نسخة الشـاهنامه التـى مـات الإدريسـى وهى معه .. وهى النسخة التى عرفها العالم ..

لكـن الفردوسـى بـدأ رحلـة الهـرب الطويلـة مـن بطـش السلطان ..

* * *

اختفى (رستم) ..

لكن الجيش الرهيب ما زال يزحف يقوده الأخ (صحراب) .. إن الكبرياء معنى جميل لكن الجيش الزاحف علـى (إيران) حقيقة مروعة .. هكذا راح النبلاء يحـاولون إقنـاع الشـاه بأن يسامح (رستم) ..

ـ « أنت تعرف كبرياء هؤلاء الأبطال .. إنهم أطفال كبار تجب معاملتهم برفق .. لا عليك .. أنت تعرف أننا بحاجة إليه .. الأمر تجاوز حدود الكبرياء بل هو يمس إيران ذاتها .. »

بدأ الشاه يهدأ ويفكر بشكل عملى ..

أرسل الوفود لاسترضاء (رستم) .: لكن هذا تمنع كثيرًا .. سوف نشم هنا رائحة غضبة الأبطال الشهيرة على غرار (عنترة بن شداد) الذى رفض نجدة قومه الذين أصروا على أن يبقى عبدًا .. سوف نشم أيضًا جلسة (أخيل Achilles) على الشط يتأمل بلا مبالاة الطرواديين وهم يمزقون الأغريق .. يبدو أنها لحظة تمر بحياة كل بطل ملحمى : إنهم لا يعاملوننى كما ينبغى .. إذن دعهم يذوقوا الأهوال من دونى ..

ثم تأتى اللحظة التى تغلب فيها النخوة شهوة التشفى ، من ثم ينهض البطل ويعتمر خوذته ويستل سيفه وينطلق ..

هكذا نهض (رستم) عازمًا على خراب بيت (صحراب) هذا ..

و(صحراب) سمع أن جيش إيران قادم للقياه فتاه فخرًا ..

الأب يوشك على مواجهة ابنه .. وكلاهما لا يعرف الآخر .. (رستم) لا يعرف أن هذا ابنه ، و(صحراب) يعرف أنه ابن (رستم) لكنه لا يعرف شكل (رستم) ..

فى المساء لبس (رستم) ثياب الأتراك وقرر أن يمارس بعض التجسس ..

كان بحاجة إلى إلقاء نظرة على (صحراب) هذا الـذى يوشك على أن يتحول إلى أسطورة ..

وهكذا تسلل إلى معسكر الأتراك الذين كانوا يقيمون مأدبـة كبرى استعدادًا للحرب القادمة .. لابد أن رائحـة البغـال المشوية حركت حماسه لكنه ذكر نفسه بأن الموضوع ليس نزهة ..

أين هو ؟ هاهو ذا فى صدر المأدبة .. يلوّح بكأس وفخذ ثور فى يده الأخرى .. إنه يضحـك .. إنـه يصيح .. و(رستم) خبير بالأبطال .. هذا الفتى بطل أو سيكون واحدًا .. لكنـه ما زال أقرب للأطفال .. من هو ؟ من أين جاء ؟ من أبوه ؟

راح (رستم) يراقبـه بعض الوقت ثـم قرر أن يـدور حول الخيمة ..

مشى فى الظلام وقدماه تغرسان فى الرمال .. هنا سـمع من يضع يده على كتفـه .. كـان هذا هـو (زنـده) أخـو (تهمينة) الذى شعر بأن هذا الرجل يحمل ملامح مألوفـة نوعًا .. لكن (رستم) لم يجد وقتًا كافيًا للتدقيـق .. مـد يده إلـى عنـق (زنـده) واعتصره بيـد واحـدة حتـى بـرز لسان الرجل وعيناه .. وحينمـا أطلـق (رستم) سـراحه تكوم على الأرض جثة هامدة ..

لقد قتل (رستم) الشخص الوحيد الذى يعرفه ويعرف (صحراب) معًا ..

أما وقد صار فى القصة قتل فقد وجب إنهاء المرح ، لابد من العودة سريعًا إلى معسكر الإيرانيين .. لقد عرف ما أراد البحث عنه ..

★ ★ ★

فى الصباح ـ بعد حسرة العثور على جثة (زنده) ـ وقف (صحراب) يراقب معسكر الإيرانيين ..

جواره كان أسيره (هجير) .. أبو (جوردافريد) .. وكان يستعمله كخبير تجسس ..

سأله وهو يشير إلى بعض الخيام :

ـ « هل ترى هذه الخيمة المصنوعة من جلد الفهود والمقصبة بالذهب ؟ تلك التى يقف على بابها مائة فيل ؟ خيمة مَنْ هذه ؟ »

قال (هجير) :

ـ « هذه خيمة الشاه .. »

ـ « وهذه الخيمة الخضراء التي عليها علم (كاواه) .. مع رسم يصور أسدًا وتنينًا وحصانًا نبيلاً ؟ »

هنا قرر (هجير) أن يسكت .. لن يخبره بأن هذه خيمة (رستم) ..

هنا تتحرك المأساة فى مسارها الإجبارى الحتمى .. لماذا لا يخبره بأمر (رستم) ؟ كل شخص يصر على ألا ينطق بكلمة عن (رستم) ..

الفتى يستنطق (هجير) لكن هذا مصر على أنه لا يعرف صاحب الخيمة .. إنه يكذب وقد فهم الفتى هذا ، من ثم أخرج سيفه وأطاح بعنقه ..

ثم خرج إلى رجاله فأعلن أن القتال سيبدأ حالاً ..

ـ « سوف أنتقم لموت (زنده) ! إن من قتله ليس إلا إيرانيًا ! »

وفى معسكر الشاه بدأ الرجال يسرجون حصان (رستم) ووضعوا جلد الفهد على كتفيه .. ثم انطلق الفارس العظيم وحده متجهًا إلى جيش الترك بقيادة ابنه الذى لا يعرفه ..

فى المنطقة المحرمة بين الجيشين وقف وصاح بصوت مجلجل :

ـ « لا أريد دماء .. أريد قائدكم .. أريد (صحراب) ! »

كانت هذه من الطرق الشهيرة لحقن الدماء .. يتواجه القائدان والنتيجة تسرى على الجيش كله .

انطلق نحوه جواد مطهم رشيق . وعلى ظهر الجواد كان ذلك الشاب حديث السن الذى قابله فى المأدبة أمس ..

ساد الصمت ، وتبادل الرجلان النوع الأول من المبارزة .. مبارزة العينين .. ثم قال (رستم) وهو يتأمل الشاب :

ـ « أيها الشاب .. إن الجو دافئ لكن الأرض باردة .. أنا لا أريد أن أسلبك حياتك ! »

لكن الفتى لم يبال وشهر سيفه ..

هكذا بدأت مبارزة الرجلين العظيمين .. الأب والابن ..

تصارعا كثيرًا جدًّا حتى أنهك الجوادان وتثلمت السيوف وتعوجت الرماح ، وقال (رستم) لنفسه :

ـ « هذا الفتى قوى فعلاً .. »

بينما السيفان يتلاطمان سأله (صحراب) :

ـ « أيها الفارس العظيم .. أشعر من قوتك أنك (رستم) ! فهل أنت هو ؟ »

قال (رستم) وهو يسدد الضربات :

ـ « لا ! أين أنا من (رستم) ؟ »

هنا تشد شعرك وأنت تقرأ الملحمة .. لماذا هذا الإصرار على التكتم ؟ لقد رسم الشاعر النهاية بالقلم والمسطرة .. وهو مستعد لتحدى أى منطق مقابل أن يظفر بالنهاية التى يريدها ..

المهم أن اليوم الأول مر دون أن يتفوق أحد الطرفين .. نعم .. فالمبارزات لمدة ١٢ ساعة لم تكن شيئًا غريبًا فى هذا العهد ..

وفى اليوم الثانى بدأ (رستم) يشعر بالقلق ، لذا صلى لإلهه (أرمازد) طالبًا الثبات .. وتقول الأسطورة إنه صار ثابتًا أكثر من اللازم حتى تهشم الصخر تحت قدميه ! فقال فى أدب :

ـ « ليس إلى هذا الحد .. أقل قليلاً .. شكرًا ! »

هكذا صار أقل ثباتًا بما يسمح له بالحركة .

دارت المعركة من جديد ، لكن جرعة الثبات التى حصل عليها (رستم) كانت جيدة .. وقد استطاع توجيه ضربات لا بأس بها .. وعند منتصف النهار استطاع أن يطرح الفتى عن حصانه ..

فى هذه المرة لم تكن هنـاك مجامـلات أو أعـذار .. لقـد أخرج سيفه وأولجه فى الفتى ..

تصل المأساة ذروتها فى هذا المشهد الخالد الـذى يعرفـه كل من قرأ الأدب الفارسى ..

والفتى على الأرض يئن والحياة تفارقه ، ويلقـى خطبـة جديرة بالموقف لا يقل طولها عن ساعة .. من أهم ما جـاء فيها :

ـ « سوف تـرى ! لـو أنـك صـرت سـمكة فـى المحيـط فلسوف يجدك أبى ويخرب بيتك .. »

هكذا عـاد طفـلاً يقـول كلامًـا علـى غـرار : أبـى سـيأتى المدرسة ويذيقك الويل ..

نظـر (رسـتم) إلـى ضحيتـه وهـو يلهـث وانتظـر مـا سيقول .. قال الفتى :

ـ « إن أبـى هو (رستم) ! هل تعرف معنـى هذا ؟ (رستم) بطل الأبطال ! »

ويمد (رستم) يده ليتفحص الفتى فيجد الجوهرة ..

★ ★ ★

ـ « لو أنجبت فتاة فلتعلقيها على صدرها لتحميها من الشر .. لو أنجبت فتى فلتربطيها على ذراعه .. سوف يكون قويًا مثل (كيريمان) ، ضخمًا مثل (سام بن ناريمان) ، وطلق الكلام مثل (زال) أبى .. »

★ ★ ★

هكذا أطلق (رستم) صرخة عنيفة ارتجت لها السهول والوديان .. لابد أن الفايكنج سمعوها فى سفنهم فى بحر الشمال ..

وهنا يتحرك المزاج الشرقى النكد المولع بتعذيب الذات .. لا تنس أننا قريبون من الهند والأفلام الهندية .. هذه ذروة الميلودراما التى يشتهيها أى مخرج سينمائى ..

قال له أحد الواقفين إن الشاه عنده بلسم شاف للجراح ، فصاح (رستم) :

ـ « فليذهب أحدكم للشاه ليجلب هذا البلسم !! »

وينطلق الفارس ثم يعود بعد ساعة وقد بدت عليه خيبة الأمل .. الشاه وجد أن هذه فرصة طيبة لينتقم لكبريائه الذى جرح عندما عامله (رستم) بكبرياء ! قال للرجل إنه لا شىء عندى ولا يوجد شىء بهذه الصفات ..

نقلوا الخبر لـ (رستم) فلم يعرفوا إن كان سمع أم لا .. وإن كان سمع فهل استوعب أم لا ..

فقط انطلق فى الصراخ والعويل ..

وعندما جاء المساء حمل (رستم) جثة ابنه عائدًا إلى أمه (تهمينة) ..

كان أول ما قاموا به من حداد هو قص ذيول الخيول .. يبدو أنها كانت عادة محببة .. ثم أعلنوا الحداد وبنوا قبرًا لـ (صحراب) ..

لقد وجَّه (أفراسياب) ضربة محسوبة جدًا لـ (رستم) ..

أما (عبير)/(تهمينة) فقد كان عليها أن تجتر أحزانها وتتحمل هذه الذكرى عامًا كاملاً إلى أن قتلها الحزن ..

ومن جديد ظفر الفردوسى ثم (ماتيو أرنولد) بأبيات فى غاية الروعة .. دعك بالطبع من الروسى (جوكوفسكى) الذى ترجم هذه القصة بالذات شعرًا إلى الروسية .. وقد تحولت لأكثر من باليه وأوبرا ..

مصائب قوم !

★ ★ ★

٨ ـ رستم وشوجداد (ألن تنتهى هذه الأسماء ؟)

كانت (عبير) الآن تمارس بجدارة حياة (الكعب الدائر) مع أبيها .. الذى فر إلى (طبرستان) طالبًا حماية الأمراء هناك .. ثم من هناك اتجه إلى (بغداد) ..

لم يكن قد انتهى بعد .. لقد جلس على (الدشت) شارد الذهن لفترة كما عرفته ، ثم خرج بتسعة آلاف بيت من الشعر عن (يوسف وزليخة) .. ومن جديد تعد هذه من درر الأدب الفارسى ..

★ ★ ★

نه زين•ونه دادى مرا تو نويد

نه اين بودم از شاه •يتى اميد

(ليس هذا ما وعدتنى به .. ولم أتوقع من السلطان شيئًا كهذا)

★ ★ ★

•و ديهيم دارش نبد در ن•اد

زديهيم داران نياور ياد

•و اندر تبارش بزر•ى نبود

نيارست نام بزر•ان شنود

(السلطان ليس من نسل الملوك لهذا لا يحب الكلام عنهم !)

★ ★ ★

فيما بعد عرفت (عبير) هذه القصة ..

هناك تلك الجارية الجميلة فى بيت (زال) أبى (رستم) .. لقد تزوجها (زال) فأنجبت له ولدًا اسمه (شوجداد) .. لابد أن الاسم رائع بالفارسية فلن نعلق على هذا ..

وكما يفعل العرّافون فى كل مكان وزمان تكون مهمتهم هى إفساد بهجة الرجل العادى .. لهذا قال العرافون لـ (زال) العظيم إن هذا الـ (شوجداد) سوف يجلب المصائب لبيت أبيه ..

قال (زال) لنفسه :

ـ « هذه أخبار مقلقة ، لكن يجب الا أنسى أن هذه ملحمة .. قواعد الملحمة الأساسية أن يتجاهل البطل نصائح العرافين التى تكون صادقة أبدًا .. سوف أتجاهل هذا الهراء إلى أن يتضح أنه ليس هراء .. »

هكذا عاش الفتى فى بيت أبيه العظيم (زال) .. رباه الرجل جيدًا جدًّا لكن قواعد الملحمة لا تتغير .. إنها أقوى من عوامل

الوراثـة وعوامـل التربيـة ، لهذا صـار (شوجداد) شـريرًا حقيقيًّا من شريرى القصص ..

عندمـا صـار الفتـى يافعًـا أرسـله أبـوه إلـى (كـابول) ليلقى ملكها ..

رحب به الملك بشـدة باعتبـاره ابـن (زال) العظيـم ، وزوجه ابنته .. لكن الرجلين : الملك وصهره كانا يخفيان تلـك الميـول المرضيـة التـى يخشـيان الإفصـاح عنهـا .. كلاهما كان يكره (رستم) كالجحيم .. وفى لحظة صفـاء تصارحا وعرف كل منهما أن الشيطان أرسله للآخر ..

هكذا جلسا يعاقران الشراب .. لابد من مشاعل متوهجة تضفى ظلالاً مخيفة عليهما .. لابد من الكثير من النظـرات الشـريرة مـع رفـع الحـاجب الأيسـر علـى طريقـة (فريـد شوقى) فى الأفلام القديمـة .

قال ملك (كابول) بلسان معوج :

ـ « إن (رستم) أخوك غير الشقيق .. هك ! مـا زلـت لا أرى .. هك ! مبررا كى تكرهه إلى هذا الحد .. »

قال (شوجداد) فى غل :

ـ « لأنـه نـال المجـد ورضـا أبـى .. هـذه أسـباب كافيـة فيما أرى .. »

ثم صب لنفسه كوبًا آخر وقال :

ـ « دعنا من هذا الهراء .. نحن بحاجة إلى الحيلة لهزيمة (رستم) .. فالرجل خطر وهو قادر على هزيمة جيش كامل .. »

ـ « أنا مصغ .. »

فكَّر الفتى كالحالم ثم قال :

ـ « سوف تقيم مأدبة تدعو إليها النبلاء .. وأنا بينهم .. »

ـ « خطة محكمة .. هك ! لكنى لا أعرف كيف يقضى هذا على (رستم) ..»

ـ « سوف توجه لى إهانات مشينة .. تسب أبى وأمى .. إلخ .. من ثم أنصرف غاضبًا .. سوف أنطلق إلى (رستم) لأشكوك له .. عندها يجن الرجل .. »

لم يفهم الملك الكثير لكنه وافق على كل حال ..

هكذا شهد قصر (كابول) مأدبة عظمى .. سال الخمر أنهارًا وتصاعدت روائح الشواء .. بينما تعالى صوت الموسيقا وراح الحواة يرقصون .. النبلاء راحوا يأكلون ويشربون حتى الامتلاء .. وتصاعدت الضحكات ..

فى وسط الصخب نادى الملك (شوجداد) .. وبصوت عال صاح :

ـ « أنت خنزير ! »

نظر له الفتى فى ذهول ثم فضل تجاهل الأمر أو تظاهر بذلك .. فأردف الملك :

ـ « وأبوك (زال) خنزير كذلك ! أما أخوك (رستم) فقد جاء من نسل حلاليف برية يمتد إلى فجر التاريخ ! »

طبعًا لم تكن الشتائم بذيئة جدًا لكنها مشينة بما يكفى .. هكذا احمر وجه الفتى ، ولما كان فى بلاط الملك لم يكن بوسعه إلا أن ينصرف .. هذا ضمن السيناريو المتفق عليه ..

يبدو كذلك أنه انفجر فى البكاء وراح يقول كلمات على غرار أنه سيخبر أخاه الأكبر .. أشياء على غرار (والله العظيم أخويا رستم حيوريك) .. الخ ..

ينطلق الفتى (شوجدد) على حصانه قاصدًا (زابوليستان) ..

كان منظره رهيبًا عندما قابل أخاه (رستم) .. لقد خرج له (رستم) واحتضنه حتى كاد يقتله .. بل رفعه مترين فوق الأرض .. أما (عبير) فقد ألقت نظرة مدققة ..

لم تكن من الطراز الذى يجيد فهم البشر قط ، ولو كانت كذلك لكانت فى حال آخر ، لكن شيئًا فى مظهر الفتى أشعرها بالافتعال .. هذا الفتى يبالغ .. ليس غاضبًا إلى الحد الذى يتظاهر به ..

قال الفتى بين دموعه :

ـ « شتمك .. قال إنك حلوف .. »

ـ « فهمت .. »

ـ « نعم قال إنك حلوف برى .. »

ـ « فهمت هذا أيها الأحمق .. كف عن ترديده ! »

ـ « .. بل شتم أبى وأجدادى ! إهىء إهىء»

البطل الإيرانى العظيم يصغى وعيناه تشتعلان نارًا .. فى هذه اللحظة لمعت فى عيناه تلك النظرة التى التمعت مرارًا فى عينى (عنترة) و(جلجاميش) و(هرقل) .. أوردته تنفر.. وجهه يحمر ..

ألقى بأخيه على الأرض وصرخ :

ـ « الجيش !!! إلى (كابول) ! »

سمع الرجال هذا فتهيأوا للقتال .. إن راحتهم التى طالت ثلاث ساعات هى شىء غير معتاد مع رجل مثل (رستم) .. أعتقد أن هذه أول حرب إيرانية أفغانية فى التاريخ ..

هنا صاح الفتى وهو على الأرض :

ـ « أخى العظيم يا بن (زال) .. هل تنوى تجريد الجيش لحملة كهذه ؟ »

ـ « هل لديك اقتراح آخر ؟ سوف يغسلون الإهانة بدمائهم .. »

قال الفتى فى خبث :

ـ « إن إرسال جيش كـامل يعنـى .. يعنـى أنـك تعطـى هؤلاء الأوغاد بعض الأهميـة .. فـى حين أرى ان ذهـابك وحدك كاف جدًّا .. يكفى أن يروا (رستم) عند حدودهـم حتى ينتابهم الهلع .. »

ـ « فكرة لا بأس بها .. »

هنا هتفت (عبير) فى رعب :

ـ « أية فكرة ؟ من غير المعقول أن تذهب لمحاربة ملك (كابول) وحدك ! »

ـ « أراها فكرة لا بأس بها .. إنها تنم عن الاحتقار .. »

كادت تجن .. لكن منـذ متـى يستطيع أحـد تغيير أفكـار أصحاب الملاحم ؟؟ وقدرت أن كارثة ستحدث لا محالة ..

هكذا انطلق (رستم) مع عدد محدود من رجالـه نحـو (كابول) ..

كانت مسيرة قصيرة لأن غضبـه كـان يزجـى الوقـت .. ويبدو أنه لم يكف عن ترديد :

ـ « سوف يرون ! سوف يرون !! »

أخيرًا لاحت مشارف (كابول) ..

جاء الملك ليلقى (رستم) متزلفًا متظاهرًا بالمودة ، وهو يفرك يديه .. كانت عينا (رستم) تشتعلان كالنيران ، لهذا كان الرجل شجاعًا بحق عندما خرج ليواجهه .. لو كنت مكانه لما تأكدت من شىء .. لربما أطار هذا الوحش الإيرانى عنقك قبل سماع أية أعذار ..

قال له :

ـ « (رستم) العظيم .. يا بن (زال) .. أعرف لماذا جئت وإننى لأمرغ رأسى فى الأرض أمامك .. »

ومرغ رأسه .. ليس رأسه بالضبط بل أهداب عينيه ، وهى عادة شائعة فى الأساطير الفارسية ..

اكتفى (رستم) ببعث الشرر من عينيه فقال الملك :

ـ « أنت لن تعاقبنى على لسان جعلته الخمر لا يعرف ما يقول .. لم أتعمد ما قلت .. »

هكذا بدأ البطل يلين .. خفض سيفه وأطفأ شعلتى عينيه .. إن الرجل لا يبدو خطرًا .. إنه أبله لا أكثر ..

هنا فقط تصايح القوم فى مرح ، وأقيمت المآدب ..

قدم اللحم المشوى لـ (رستم) .. لكننا نعرف أن الرجل مولع بالتهام البغال المشوية .. مرارًا نراه يلتهم

بغلاً كاملاً مرة واحدة .. إن شـهية هؤلاء الأبطـال تذكـرك بالحيتان .. لهذا لم يكن متحمسًا لأصناف الطعام التى بـدت له أقرب إلى العينات ..

مـال عليه الملك وقال بتلك الطريقة المنـافقة :

ـ « هنـاك غابة تزخر بالبغال المشوية و ... »

ـ « مشـوية ؟ »

ـ « أعنى البغـال السمينة .. سـوف نذهـب هنـاك غـدًا لتمارس هوايتك فى الصيد .. ثم نقيـم حفـل (بـاربيكيو) خلويًا .. سوف تستمتع بكل لحظة من وقتك .. »

ـ « أعترف أن العرض مغر .. »

فى اليوم التالى بدأت طقوس الصيد الفارسـى .. الكثـير من الألوان الزاهية كأنما هم يعرفون أن صورتهم سيرسمـها رسامو (بهزاد) .. الكثير من المنمنمات .. أبـواق .. كلاب صيد طويلة العنق .. خيول ..

وانطلق الركب فى الغابة يسابق الريح .. إن فكرة البغـال لا تفارق ذهن الأخ (رستم) وقد بدأ لعابه يسيل فعلاً ..

أخيرًا نصل إلى مكان الفخ ..

ألم أخبرك بهذا من قبل ؟ لا ؟ إذن ما مبرر هذه الخدعة

المعقدة كلها ؟ طبعًا هناك فخ .. حفرة عميقة تم إعدادها بعناية وخبرة .. فى القاع غرست عشرات السيوف بحيث تطل نصالها إلى أعلى ، أما الجدران فقد غرست فيها الرماح بزاوية ٤٥ درجة متقنة .. لو أن برغوثًا وثب فى هذ الحفرة فأنا لا أضمن سلامته .. ثم تمت تغطية الحفرة بغصون الشجر والغبار ..

لكن هناك تفصيلاً بسيطًا .. (راخاش) حصان (رستم) ليس حصانًا عاديًا .. إنه مزيج من مخبر ومصارع وتنين ..

قال الملك لـ (رستم) :

ـ « أرجو أن تتكرم بعبور هذه البقعة .. إنها تقود إلى الغابة التى تحتشد فيها البغال .. »

لهذا جذب (رستم) مقود حصانه نحو الممر القاتل ..

شم شم ! تشمم (راخاش) التربة .. هذا لن يخدعنى .. إن رائحة التربة طرية .. لقد تم تقليبها قريبًا جدًّا .. هناك كمين هنا ..

لذا وقف وتصلبت ساقاه .. لن أعبر هذه أبدًا ..

★ ★ ★

٩ ـ نهاية عصر ..

استشاط (رستم) غضبًا .. آخر شىء يقبله أن يرفض حصانه أو خادمه طاعته أمام الآخرين .. وكما عرفنا من الشاهنامه هو لم يكف لحظة عن إساءة الظن بـ (راخاش) ..

هكذا أخرج السوط وهوى به على عنق الحصان ..

ـ « هلم أيها اللعين ! »

لكن الحصان قاوم الألم .. ألم الروح وألم الجسد معًا ..

كراج ! هوى السوط ثانية .. وفى هذه المرة لم يتحمل الحصان العظيم أكثر وقرر أن يبرهن للبطل كم هو أحمق .. وهذا بطريقة عملية جدًّا ..

لقد مشى فوق الفخ ..

كانت اللحظات التالية مريرة .. الأرض تنهار .. الحصان يصهل .. الغبار يتطاير لعنان السماء ثم ينتثر الدم .. و(راخاش) الآن يرقد وقد تحول إلى أيقونة القديس (سباستيان) من كثرة النصال التى اخترقت جسده ..

(رستم) العظيم يبصق الدم ويبدو أن رمحين على الأقل اخترقا أحشاءه ، وهو يحاول أن يقف فوق جسد حصانه .. من ثم يثبت النصال أكثر ..

(رستم) يثب إلى خارج الحفرة ثم يستلقى جوارها وهو يلهث .. والدم يخرج من فتحاته السبع .. صدره المهول يعلو ويهبط .. إنه يزأر كأسد جريح ..

إنه يرى العالم يستحيل إلى لون رمادى غامض .. لون العالم الذى قرر أن يرحل .. الذبول .. الذبول ..

لكنه يرى وجهًا ..

آخر وجه يراه على الأرض .. وجه يتظاهر بالأسى لكن شفافية الموت جعلته يدرك شبح تلك البسمة الجذلة .. وجه اخيه (شوجداد) ..

لقد فهم !

ونظر إلى الحفرة من تحته .. لقد مات (راخاش) الوفى ! مات (راخاش) الوفى !

قال ملك (كابول) وهو لم يكف عن التمثيل :

ـ « (رستم) العظيم .. سوف أحضر لك خير أطبائى ! »

سعل (رستم) وهو ما زال على الأرض وهتف :

ـ « كف عن هذا أيها المخادع ! لقد انتهى عهد الأطباء فلم يعد من طبيب يقدر على تخفيف آلامى إلا الموت ! »

تظاهر الرجلان بالأسى وهزا الرأسين فى حزن كما يفعل الأنذال فى كل زمان ومكان ..

قال (رستم) وهو يعتدل فى جلسته :

ـ « أريد قوسى وسهمين .. »

نظرا له فى عدم فهم ، فأردف :

ـ « سوف أبقى هنا أنزف فترة .. لا أريد أن يأتى أسد يلتهمنى وأنا عاجز .. أظن هذا مفهومًا .. »

يبدو أن الأنذال يكونون حمقى كذلك .. أو ربما شعر الرجلان بالذنب فلم يريدا أن يحرما الرجل طلبًا أخيرًا كهذا .. كيف يمكن فهم عشرات النوازع والقرارات الغريبة التى نتخذها فى حياتنا ؟

لقد جلبا له قوسًا وسهمين ثم وليا الأدبار بما يدلك على أنهما لم يكونا بهذه الحماقة ..

نظر (رستم) من حوله بعينين زائغتين ، فلمح ظل أخيه (شوجداد) يتوارى خلف الشجرة .. كان يريد أن يتأكد من وفاته ..

ضحك ضحكة مريرة جعلته يسعل المزيد من الدم .. ثم صوب القوس ..

وبرغم ظلال الموت التى حجبت عنه العالم ، فقد انطلق السهم ..

تشاك ! اخترق السهم حنجرة الفتى الكذوب .. ويبدو أنه ثبت الفتى إلى الشجرة وإن كان هذا الوضع يبدو لى مستحيلاً ..

أطلق (رستم) ضحكة ارتجت لها الغابة كلها .. ها ها ها ها !!!

ثم انتهى ما بقى فى جسمه من قوة فمال رأسه ..

ومات ..

مات (رستم) العظيم .. مات بطل الأبطال الذى هزم كل تنين وأسد قابله .. مات ضحية خيانة وغيرة .. فليترنم الشعراء فى كل صوب ببطولاته ولتمزق (زابوليستان) ثيابها

وتبعثر الرماد على شعرها .. فلتنزع النسوة حليهـن وتلقى بها إلى التراب .. فليغمد الرجال سيوفهم ولتطفأ النيران فى الديار .. فلتذكروا أيهـا الإيرانيـون أنـه كـان لكم بطـل ملـك العالم ، وجعل الأتراك يصرخون رعبًا فى منامهم ويبللـون فراشهم .. ثم مات ..

وعاد أحد رجال (رستم) دامعًا إلـى (زابوليستان) ليخبر الأب ..

صرخ (زال) :

-« ألا ليتنى كنـت ميتًا ! تعسًا للأب الذى يعيش بعد ابنـه البطل ! »

وسمعت (عبير) الأخبار المروعة ، فسقطت على ركبتيها تبكى .. نزعت الحلى عن معصميها وفكت جدائلها ..

كانت تعرف هذا يقينًا .. كانت تعرفه يقينًا ..

على كل حال دفعت (كابول) الثمن فادحًا ..

لقد انطلق (فارامار) ابن (رستم) الآخر إلـى (كـابول) ومعه جيش عرمرم ، وهناك لم يدع شيئًا يتحرك إلا وقتله .. ثم دمـر الحقول وغطاها بـالملح فـى عصر مـا قبـل علـم معالجة التربة .. هكذا صارت ارضًا بورًا ..

وعاد الموكب الحزين إلى (زابوليستان) وقد ازداد جثتين .. جثة (رستم) وجثة (راخاش) ..

لقد انتهى عصر مجيد .. مات بطل مغوار لكن الشعراء والمنشدين كسبوا كنزًا حقيقيًا ..

★ ★ ★

إن الأخ (رستم) لم يحتكر الشاهنامه .. هناك قصص أخرى وأبطال كثيرون .. دعك من أنها غير مقصورة على سلالة الملوك .. خذ عندك (كاوة) الحداد .. لقد كان له ولدان .. والملك (الضحاك) كان رأسه على شكل حيتين .. هكذا التهم رأس الملك ابن (كاوة) .. ولهذا قام (كاوة) بقيادة ثورة شعبية ضد الملك ..

خذ عندك (سياوش) وحصانه (بهزاد) الذى أحضره وطلب منه أن يتماسك لأنه موشك على الموت .. وأوصاه بألا يخضع لأحد من بعده ، ولا يترك أحدًا يضع السرج على ظهره ما عدا ابنه (كيخسرو) .. وقد بر الحصان المخلص بهذا الوعد ..

خذ عندك كذلك (أزهيدا كاكا) الثعبان العملاق الذى يخدم (أندجرا ماينيو) أبا الكذب .. إنه وحش متطور له ثلاثة

فكوك وثلاثة رءوس هى الألم والحزن والموت .. هذا هـو الثعبان الوحيد فى العالم ـ على قدر علمى ـ الذى تم حشوه بحشرات سامة .. دعك من الثعبـانين اللذيـن يخرجـان مـن عنقه .. إنـه مختص بأكل الماشية .. ويقال إنـه سيعود يومًا ليدمر ثلث العالم إلى أن يوقفه بطل يدعى (كيرسابا) ..

خذ عندك كذلك ثانى ملوك الفرس (أوشهنج) الذى كان أول من اكتشف النار والحديد حسب كلامهم .. كـان يجـوب الجبل حينما رأى حية تنظـر لـه فتتوهـج عيناهـا .. رماهـا بحجر فلم يصبها .. وقع الحجر على سفح الجبل فاشـتعلت منه النيران ونقلها للبشر .. وهذه القصة مهمـة جدًا عنـد عابدى النار .. أى أن الأخ (أوشهنج) هـو (برومثيـوس) الفرس . وقد حكى (الطبرى) عن هذا الملك فى تاريخه .. ولـم يكتـف (أوشـهنج) بذلـك بـل اتخـذ آلات الحديـد مـن الفئوس والمنـاشير وغيرها .. واتخذ من جميـع البهـائم كـل نوع يصلح للعمل من البقر والحمير وغيرها ، ودبغ جلود الثعالب والسنجاب والسـمور وأمـر بسـلخ الجلـود للملابـس والمفارش ، وكانت مدة ملكه أربعين سنة .

إن الأخ (رستم) لم يحتكر الشاهنامه ..

لكن لابد أن نتوقف عند لحظة ما ..

★ ★ ★

الركب يمضى بجثة (رستم) .. وأنشودة حزينة تتصاعد من الحناجر ..

والفيل يمشى محاطًا بالعبيد والحرس المدججين بالسلاح .. إنه ليس كأى فيل .. إنه فيل يحمل ما استطاع حمله من ذهب ..

يتجه الحراس نحو المدينة .. (طوس) .. أسوارها الفارسية العتيقة تطل عليهم .. هذه بوابة (طبران) .. يتجهون إلى حارس البوابة ويسألونه :

ـ « هل تعرف أين بيت (أبو القاسم) الشهير بـ (الفردوسى) ؟ »

نظر لهم الحارس فى حيرة .. ثم نظر إلى الفيل متسائلاً :

ـ « ما هذا بالضبط ؟ »

ـ « هذا فيل محمل بالذهب .. قد أرسله السلطان (الغزنوى) إلى (الفردوسى) .. »

ـ « والسبب ؟ »

ـ « بفضل وساطة مولانا (الميمندى) شمس الكُفاة .. ندم السلطان على ما كان منه فى حق هذا الشاعر العظيم وقرر أن يعيد له اعتباره .. إن السلطان فى الهند الآن لكنه فخور بالشاهنامه ويرى أنها خلدت الأدب الفارسى للأبد .. »

فكر الحارس قليلاً ثم سمح لهم بالدخول ، وقال وهو يتنحـى عن البوابة :

ـ « لو أسرعتم للحقتم به قبل أن يغادر المدينـة مـن بوابـة (رزان) فى الناحية الأخرى! »

ووصف لهم بيت الرجل .. أصيب الرجـال بـالذعر ، فـاندفعوا فى الشوارع يبحثون عن الشاعر المحبط .. إنهـم ليشـقون طريقهم عبر السوق شقًا والفيل الذى لا يكفون عـن نخسـه يدوس أى شخص لا يروق له .. لهذا كان موكبهم صاخبًـا إن لم يكن مرعبًا ..

أخيرًا رأوا البيت ..

كانت (عبير) ابنة (الفردوسى) تقف على البـاب ، وثيابها ممزقة والدموع تسيل على خديها .. وكانت حافيـة الأمر الذى أثار دهشتهم ..

سألها الحارس بأدب :

ـ « هل .. هل هذا بيت الشاعر العظيم (الفردوسى) ؟ »

نظرت له وإلى الفيل والعبيد ، ثم قالت فى سخرية مريرة :

ـ « كان ! »

ـ « كان ؟ لماذا تستعملين هذه الصيغة ؟ إن صيغة الماضى هذه ..»

قالت وهى تبصق على الأرض :

ـ « إن جثته تغادر المدينة الآن من بوابة (رزان) !! »

أصيب الرجال بالذهول .. ربما لو كانوا أسرعوا قليلاً .. إن غباء هذه الأفيال ..

قال لها الحارس وهو ينزع خوذته الغارقة فى العرق :

ـ « أرجو أن تقبلى تعازى وتعازى مولاى السلطان (الغزنوى) .. هل أنت ابنة الشاعر ؟ نعم ؟ إن هذا يعنى أنك وريثة هذا الفيل بما عليه من ذهب .. »

نظرت له نظرة نارية .. تذكرت كل ما قاله أبوها وفعله .. تذكرته شابًا وسيمًا يجلس على (الدشت) ليكتب الأبيات الأولى من الشاهنامه .. تذكرته شيخًا انحنى ظهره على الأوراق .. ما معنى الذهب هنا ؟ الأشياء لا تكتسب معناها إلا من حاجتنا لها ، وقد كان الذهب بالنسبة لها الآن لا يزيد أهمية على قطعة من الجبن الفاسد ..

قالت وهى تتجه لتغلق الباب :

ـ « لا أقبله .. أخبر مولاك بهذا .. ولا تنس أن تـأخذ قطعة القاذورات العملاقة هذه معك .. »

ووقف الرجال يتبادلون النظر .. لقد عرف (الفردوسـى) كيف يهينهم برغم أنه مات ..

★ ★ ★

مرا سال ب•ذشت بر شصت و•نج

نه نيكو بود بيارم ب•نج

(قد تجاوز العمر خمسة وستين عامًا .. فلو نلـت الثروة اليوم ماذا أفعل بها ؟)

★ ★ ★

والموكب يخرج من المدينة ، و(عبير) تبكى ..

هنا شعرت بمن يلمس كتفها فى رفق .. نظرت للـوراء فرأت المرشد واقفًا يبتسم ابتسامته اللزجة .. نظرت لـه قليلاً ثم قالت وهى تستنشق لتمنع أنفها من أن يسيل :

ـ « حان الوقت إذن .. »

قال وهو يضغط على قلمه :

ـ « هذا صحيح .. أعتقد أنك عرفت قشرة لا بأس بها عن الشاهنامه .. لكن ليس كل الكثير .. إنها ضخمة إلى درجة لا توصف ، وقد تحتاجين إلى عمر كامل لرؤية كل شيء .. لكن لا تنسى النقطة المهمة التى قلتها لك .. الشاهنامه محاولة فارسية للاحتفاظ بالذات أمام المد الإسلامى ، ولهذا تحوم حولها تهمة شعوبية ما .. وما زال البعض يعتبرها عملاً خبيثًا .. »

قالت له وهى تتنهد :

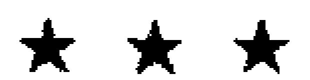
ـ « ليكن .. لكن أرجوك أن تعفينى من الملاحم القديمة بعض الوقت .. أنا بحاجة لرؤية شوارع وسيارات وأناس يتصارعون عن طريق المحامين لا بوساطة الرماح والسيوف ! »

فكر قليلاً وأمسك بيدها وأشار إلى قطار فانتازيا ، وقال :

ـ « سأحاول .. لكن لا أعدك بالكثير .. »

ولم تدر (عبير) أن القصة القادمة ستكون أسوأ كوابيسها .. إنها الملل بعينه !

★ ★ ★



تمت بحمد الله

فانتازيا

مغامرات ممتعة فى أرض الخيال

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٢٢٠٧٣
الترقيم الدولى : ٩٧٧ - ٢٧٨ - ١٢٨ - ٠

نادى المحاربين الجدد

من ليبيا يأتى صديقى (أحمد البخارى) بمجموعة قصائد رقيقة اخترت منها هذه القصيدة على سبيل المثال :

(ثلاثية الثمن ..)

تقولين يا فتاتى :

(لم تعد طفلاً فى عينى الآن)

ولم تذكرى ، أنك من

تخلّيت عن طفلك ..

قبل الأوان ..

نعم كبرت ..

لم أعد طفلاً ..

وهذا ما يحدث لكل طفل ..

يتخلَّى عنه والداه !!

(هل تبيعنى روحك ؟)

لقد بعتها منذ زمن ..

ثمنها كان راحتيك

وقد قبضت الثمن ..

(بكم تبيعنى أسرارك ؟)

حقًّا لم تعد يا سيدتى ..

فى جعبتى أسرار ..

بها أتذعن ؟

حماقاتى هى حماقاتى ..

وأطفال اليوم ـ صدقينى ..

يتكلمون عن الثمن ..

عن ثمن الحلوى ..

والألعاب النارية والمسوخ ..

لأن كل شىء ـ صدقينى ..

فى هذه الدنيا له ثمن ..

نعم أريد أن أدفع الثمن ..

ثمن رفضك لأشيائى الملونة

ثم عدم مبالاتك بقصائدى

ودموعى المعنونة

نعم أريد أن أدفع الثمن

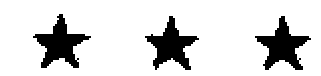
رغم أنك لا تستحقين

يا فتاتى الثمن !!

بقلم : أحمد محمد البخارى

★ ★ ★

قمت ببعض التصحيحات اللغوية على غرار (فى عيناى) صارت (فى عينى) .. إلخ .. لكن لاتنكر أن جو القصيدة متميز ، وفيها روح شعرية واضحة موضوع الأطفال والثمن .. إلخ ، لكنى بصراحة صرت أصاب بالحساسية كلما قرأت (سيدتى) ؛ لأننى أشعر أن كاتبها يقلد أحد اثنين : (نزار قبانى) أو (عبد الوهاب مطاوع) رحمهما اللّه ..



بعد هذا ننتقل إلى قصة من الخيال العلمى للصديق (محمد جمال الدين) :

المصــير

انهار الباب ، ووقع على الأرض كاشفًا خلفه عن أربعة رجال يرتدون ملابس واقية تحمل العلم المصرى ذا الألوان الحمراء والبيضاء والسوداء ، والنسر الأصفر ، يبدون كوحوش أسطورية أو كائنات فضائية ، يحملون على ظهورهم عبوات كبيرة متصلة بخراطيم معدنية ، تنثر غازًا عديم اللون كريه الرائحة فى وجوه نباتات عجيبة ، يبدو الواحد منها كإخطبوط صغير على ساق نباتية خالية من الأوراق ، تتموج أذرعه ، ويخر صريعًا مجرد أن يخترق الغاز مسامه ..

بعد نصف ساعة ، وعندما انتهى الرجال من عملهم ، وخرجوا من ذلك المعمل القديم المتهالك المملوء بأنواع مختلفة من النباتات ، والموجود فى أحد أحياء القاهرة الهادئة ، أعطى أحد الرجال إلى قائدهم الإشارة الدالة على أنهم انتهوا من عملهم .

هنا قال المقدم (عماد صالح) لمساعديه :

حان الوقت لمعاينة المكان .

ودخل إلى المعمل المتهالك الذى يصدر خشبه صريرًا مزعجًا ، يذكرك إذا ما سمعته بأفلام الرعب الأمريكية القديمة ..

هنا وجد إلى جانب النباتات الميتة هيكلاً عظميًّا لرجل كان يرتدى معطفًا أبيضًا ملطخًا ، بالدماء وبقايا اللحم الآدمى .

انتشر رجال الشرطة والمباحث الجنائية فى المعمل يرفعون البصمات ، ويقومون بالأعمال الروتينية المتبعة عند كل قضية ، فى حين توجه المقدم (عماد) إلى المنضدة الوحيدة الموجودة فى المعمل عليها عدد من أنابيب الاختبار والمجاهر وموقد صغير وعينات موضوعة فى عبوات صغيرة مرقمة ، ومذكرة صغيرة مفتوحة على صحفة ملوثة بالدماء . أمسك المقدم (عماد) بالمذكرة وقلبها فى يده ، ثم فتحها على أحد صفحاتها عشوائيًّا ، وقرأ فيها :

السبت 22 نوفمبر . الساعة الرابعة عصرًا .

اليوم توصلت إلى اكتشاف عظيم ، عظيم جدًّا ، من أكبر الاكتشافات لهذا القرن منذ اختراع القنبلة الذرية .. سلاح بيولوجى سيكون من أهم الأسلحة وأخطرها .

الأحد 23 نوفمبر . الساعة الحادية عشرة صباحًا .

سأقوم بأول تجربة لاكتشافى الجديد الذى سيجبر كل علماء العالم على اعتبارى أعظمهم فى مجال علوم النبات ، بدأت فى وضع البويضة النباتية ، ولقحتها بخلية تناسلية لذكر الإخطبوط ، ووضعتها فى وسط مناسب .

الساعة السادسة مساء .

فشل التجربة يبدو واضحًا .

الاثنين 24 نوفمبر . الساعة الثالثة ظهرًا .

قمت بإجراء التجربة الثانية ، ومثلما توقعت فقد فشلت بدورها ، ولكنى لم ولن أفقد الأمل أبدًا .

الثلاثاء 25 نوفمبر . الساعة الواحدة ظهرًا .

قلبى يكاد يتوقف من السعادة لقد حصلت على نبتة نتجت من تزاوج الخليتين التناسليتين اللتين زاوجتهما بالأمس ليلاً ، النبات الناتج تتكون أوراقه من نسيج حيوانى ، من خلايا هضمية ..

سأنتج عددًا آخر من النباتات ، سأحاول أن أنتج بذورًا يمكن تخزينها .

الأربعاء 26 نوفمبر . الساعة الرابعة عصراً .

أكاد لا أصدق مدى النجاح الذى وصلت إليه ..

اليوم نجحت محاولات الإخصاب بنسبة 94 % وهى نسبة شبه مستحيلة بالنسبة لأكثر التوقعات تفاؤلاً .. ولكنها حدثت ..

ولقد أنتجت عددًا محدود من البذور ويالها من عملية معقدة ، تحتاج إلى الاحتفاظ بمتاع أنثى النبات وتخصيب

البويضة التى هى موجودة بالداخل مع الإبقاء على الزهرة فى مكانها ..

واليوم أيضًا نما وحشى الصغير ، ويا له من جشِع يلتهم اللحوم بنفس سرعة التهام أسماك (البيرانا) لها ولكن بما أنه نبات فيمكن السيطرة عليه بالتحكم فى الجرعات المعطاة له .

وهنا وصل المقدم (عماد) إلى الصفحة الملوثة بالدماء ، وقرأ فيها :

الخميس 27 نوفمبر . الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

استيقظت على صوت ارتطام شىء ما بالأرض ، قمت من فراشى ، إنه ليس سوى لص حاول سرقة معملى ، فالتهمته النباتات البالغة فى دقائق معدودة ، وتركت هيكله العظمى فقط ، ولقد تخلصت منه بدفنه فى فناء المعمل ، وسأذهب الآن أكمل نومى .

الساعة الثالثة بعد الظهر .

اللعنة ، لقد تأخرت عن ميعاد إطعام النباتات ، ولكن ما هذا ؟

لماذا تتموج النباتات هكذا ؟ لا يبدو أننى فقدت السيطرة ، إنها تـ ...

وانتهت الكلمات عند هذه النقطة فأغلق المقدم (عماد) المذكرة وأعادها إلى مكانها ، ثم نظر فى أسف إلى الهيكل العظمى الذى كان فى يوم من الأيام عالِمَ نباتٍ حاول إنتاج سلاح جديد ، والنبات الميت مرتمٍ إلى جانبه ..

هذا هو مصيره ، مصير من يزرع الشر ..

دائمًا ..

يجنى الشر ..

(تمت بحمد الله)

محمد جمال الدين حسين

الجمعة ٣ يناير 2003

كما نلاحظ يوجد تأثر واضح بأسلوب د. نبيل مع خيوط عدة من قصتى (أسطورة النبات) .. طبعًا هذه محاولة وسوف نرى أفضل منها فيما بعد ، وقد تركت الأخطاء اللغوية كما هى ؛ لأنها كثيرة جدًا .. هو لا ينصب أى مفعول به (لرجل كان يرتدى معطف أبيض) ولا يجر المضاف إليه (تزاوج الخليتان التناسليتان) ، ولا يستعمل علامات الترقيم فتأتى جمل تقطع الأنفاس مثل (يبدون كوحوش أسطورية أو كائنات فضائية يحملون على ظهورهم عبوات كبيرة متصلة بخراطيم معدنية تنثر غازًا عديم اللون كريه الرائحة فى وجوه نباتات عجيبة يبدو الواحد منها كإخطبوط صغير على ساق نباتية خالية من الأوراق تتموج أذرعه ويخر صريعًا مجرد أن يخترق الغاز مسامه) .

بالإضافة لهذا المنطق العلمى للقصة غير واضح .. كما قلت هى محاولة أولى وسوف نرى المحاولة التالية ..

راقت لكثيرين القصة التى نشرتها من قبل للصديقة الصغيرة (نورا أيمن الجندى) ، لذا رأيت أن أنشر لها قصتها الجديدة (حوار مع القمر) .. من جديد أكرر لمن يأتون لأول مرة : راجعوا السن .. راجعوا السن ! حتى لو كانت أكبر من هذا بعشر سنوات لظلت القصة جيدة جدًّا .



حوار مع القمر

كان القمـر فـى تلـك الليلـة خافتًـا ، لا يتـلألأ نـوره كبـاقى الليالى ، بل يزيد هذا الضوء الخافت الليلة اكتئابًا وحزنـا ..

ترى تلك الفتاة الجميلة التى تطل من شرفتها كالبدر فى ردائها المحتشم ..

تحدث القمر بهمومها وتواسيها النجوم ، فلا تزال صورة مصرع أمها تدور فى ذاكرتها ، فتتمزق فى أعماقها ..

قال القمر : لا تحزنى أيتها الفتاة الطيبة ..

وتقول النجوم : لا تبكى ولا تخافى ..

صاحت الفتاة تبكى : وماذا لى بعد أمى فى هذا العالم ؟

قال القمر : الإيمان ... أيتها الفتاة الطيبة !

صاحت النجوم : صدقت ... أيها القمر الحكيم !

أكمل القمر : هل تتذكرين كلمات أمك الأخيرة ؟

صمتت الفتاة لبرهة ، ثم تذكرت كلمات أمها : هناك دائمًا ضوء يلمع فى الأفق .. إنه الأمل الذى نعيش به .

صاحت الفتاة : وهل سأراها أيها القمر من جديد ؟

ـ ربما هى معك ولا تشعرين بها ، وتكلمك ولا تسمعينها ؟

صاحت فى حماس : وكيف أسمعها وأشعر بها ؟!

ـ عند الشروق !

ـ شروق الشمس ؟

ـ ليس عندما تشرق الشمس ، بل عندما تؤمنين أنها قد أشرقت !

وفى تلك اللحظة .. ارتعشت أنامل الفتاة .. فقد أذّن

الفجر ، ولم تمض لحظات حتى بدأت أولى خيوط النور تظهر ..

وسمعت الفتاة صوتًا ينادى : ابتسمى يا ابنتى .. فقد أشرق الصباح !

نورا أيمن الجندى

11 سنة

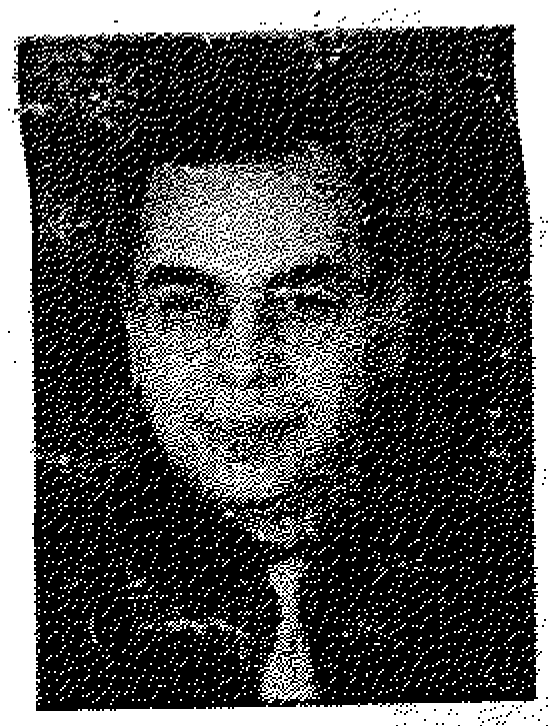
المطبعة العربية الحديثة

فانتازيا

مغامرات ممتعة من أرض الخيال

روايات مصرية للجيب

ألعاب فارسية


د. أحمد خالد توفيق

رستم .. إصفنديار .. تهمينة .. ملك رأسه ثعبانان .. عنقاء .. وعدد لا بأس به من السادة خشنى الطباع الذين لايجيدون المزاج .. اليوم نفتح بوابة جديدة في (فانتازيا) هى بوابة الأساطير الفارسية .. ندرك بسهولة أنه عالم ساحر مخيف .. ومخيف ... مخيف لدر

الثمن فى مصر ٢٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢